من سلسلة

حكايات على ضفاف الخليج

اختـــــراق

تــأليــف

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

الطبعة العشرون يناير 2008

إهـــداء

- إلى العقل الذي علمني كيف أنشد القمة..
- إلى القلب الذي أهداني ينابيع الرحمة..
- إلى النفس الكريمة التي علمتني كيف يكون النبل..
- إلى كل المثل العليا التي ظللتني بحكمتها ورحمتها ونبلها..
- إلى الجسد الذي غاب والى الروح الخالدة التي تظلل حياتي بعبير ذكراها..
- إلى روح والدي عبد العزيز أحمد الباكر أهدي هذا العمل

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

المقــدمة

ربمـا يعتقـد الـبعض أن مصـطلحات كـالغزو الثقـافي أو الصـدام الحضـاري هـي نـوع مـن التـرف الجـدلي العقيم الـذي لا يحمـل فـي مضـمونه أكثـر مـن معنـى سـطحي وبسـيط لمفـردات هـذا المصـطلح أو ذاك. وربمـا جهلـوا مـدى الخطـورة الهائلـة للمعـاني الحقيقيـة والأبعـاد المثيـرة لتلـك المصـطلحات. إن ثقافـة شـعب تعنـي فـي مضـمونها أسـلوب حيـاة وتـراث تـاريخي يحمـل ملامـح وسـمات وشخصـية كـل شـعب بـل هويتـه الإنسـانية الحقيقيـة التـي تعطيـه وتمنحـه قـوة وصـلابة وإرادة يثبـت بهـا جدراتـه بـين شـعوب العـالم وأممـه فـي تاريخ صنع الحضارة الإنسانية بالمشاركة الإيجابية المرتكزة على القيم الإنسانية العليا.

فهكـذا خلـق الله الكـون ثـم خلـق آدم ومـن نسـله ظهـرت شـعوب وأمـم ومنـذ بـدء الخليقـة وحتـى البـدايات الوشـيكة للقـرن الحـادي والعشـرين وبموجـب المسـافات الجغرافيـة والتاريخيـة بـين تلـك الأمـم والشـعوب أرسـيت دعـائم مجتمعـات، كـل مجتمـع فـي أمـة أو شـعب ظـل يحصـد نتـائج تراكمـات تاريخيـة معرفيـة وحضـارية وإنسـانية حتـى وصـل إلـى النصـف الثـاني مـن القـرن العشـرين، وبموجـب القفـزات الحضـارية الهائلـة التـي صـاحبت بدايـة القـرن العشـرين وصـولاً إلـى بـدايات الحـادي والعشـرين أصـبحت الكـرة الأرضـية متصـلة الأرجـاء بشـكل مثيـر مـن خـلال تكنولوجيـا الاتصـالات، الأمـر الـذي عجـل بظهـور بـدايات التصـادم الثقـافي والفكـري ودفـع بـالخوف إلـى أوصـال أمـم سـادت منـذ آلاف السـنين علـى نهـج يتفـق تمامـا مع نسيجها الروحي والنفسي والحضاري.

إن النسـيج الثقـافي لأمـة اسـتمدته مـن عمـل حضـاري وتـاريخي موغـل فـي القـدم، عاشـت بـه واحتمـت مـن أعاصـير الـزمن وعواصـفه البـاردة المخيفـة وتجـدد هـذا النسـيج برسـالة سـماوية تجـددت بهـا روح الأمـة وإرادتهـا لتملـك الحـق ألـف مـرة وهـي تفكـر فـي حمايـة وجودهـا مـن الـزوال إن استسـلمت للـذوبان الثقـافي الذي يشهده هذا العصر.

لكـن السـؤال الـذي يطـرح نفسـه بقـوة وإلحـاح هـو: كيـف السـبيل لتعـايش آمـن ومقبـول فـي عـالم يمـوج بتغيـرات هائلـة كالطوفـان وبشـكل بـدا معـه كقريـة صـغيرة؟ إن علينـا لكـي نجيـب علـى هـذا التسـاؤل أن نحصـر ونقـيم تراثنـا الثقـافي والروحـي وآليـات تفعيلـه داخـل مجتمعاتنـا العربيـة والإسـلامية وأن ننظـر إلـى تاريخنـا نظـرة عميقـة واثقـة وسـوف نجـد حتمًـا أننـا أصـحاب تـراث عريـق وتـاريخ موغـل فـي الأصـالة والقـدم وأصـحاب رسـالة منحتنـا إياهـا السـماء لنسـتظل بهـا ونحتمـي مـن هجيـر الـزمن وعواصـف الريـاح السموم.

إن التواصـل الثقـافي والحضـاري والإنسـاني مـع ثقافـات وشـعوب العـالم الأخـرى بلاشـك فـي أن لـه ثمنًـا ربمـا كـان باهظًـا بالقيـاس الأخلاقـي لكنـه يحمـل إيجابيـات حتميـة تفرضـها متغيـرات الـزمن والتـاريخ

والمسيرة الإنسانية للذين يرون ويسمعون ببصيرتهم وأبصارهم معزوفات الزمن وانحناءات التاريخ ولغة الكون وحكمة خالقه العظيم.

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

اختـــــراق

كان الطقس رائعًا وكان المنظر خلابًا في هذا الوقت بالذات حيث بداية النصف الثاني من ديسمبر الذي يمثل بداية حقيقية لربيع حل بعد صيف لاهب كعادة طقسنا الخليجي، وكانت تلك المدينة الخليجية التي تحتضنها مياه الخليج في حنان ودعة رغم تغيرها وتحولها الحديث إلى مدينة حديثة الطابع والطراز بتصميماتها المعمارية التي يغلب عليها الطابع الذي تتسم به مدن العالم الحديث إلا أن المساجد القديمة والحديثة بمآذنها العتيقة الطراز والحديثة أيضًا كانت تنتصب شامخة تقاوم عوامل الحداثة الطاغية وكأنها تدلي بشهادتها أمام الخالق العظيم على إيمان وعقيدة لا تتزعزع تسكن قلوب البشر هنا وتشكل حارسًا أمينًا على ماض عريق وحاضر يحمل سمات مستقبل يتشكل فيه الأمل هناك في السماء التي يأمرها الخالق لتبعث بنورها للأرض رغم الغروب ورغم كتل السحب الداكنة السوداء.

أخذ الرجل يغالب قلقه وهو يطالع ببصره حافة الأفق من نافذة غرفة نومه بعد أن أزاح بيده ستارة النافذة قليلاً، ورغم أن الشمس الغاربة كانت تتلكأ في الرحيل أو كانت تبدو كذلك إلا أن تلك الكتلة الرمادية الداكنة من السحب التي كانت تحاول اعتراض أشعتها القرمزية الواهنة لم تستطع بقتامتها أن تطمس نورها وضياءها الكسير، حيث انطلقت أشعة الشمس مخترقة بعض الفجوات في تلك الكتلة الرمادية على شكل أوتار ضوئية وكأنها قيثارة تعزف لحنا صامتا لا يفهم نغماته الحانية الراقية سوى الحكماء. كان الرجل ما يزال سارحاِ ببصره بعد أن غاب ببصيرته داخل أعماق الزمن وصيرورة الحياة هنا، يتأمل بوعيه الباطن ويتلمس هذا الدفء الروحاني العظيم الذي كان يستشعره في تلك

اللحظات حتى أفاق على صوت أذان المغرب الذي بعث بالطمأنينة والسكينة داخل نفسه ولم يكد يتحرك من مكانه أمام النافذة حتى فتحت غرفة نومه ودلفت امرأته باسمة لتبادره بتعليقها الضاحك:

- ظننتك ما زلت نائما، ألا تريد الإقلاع عن كثرة النوم؟! فأجابها قائلاً وهو يبتسم:

- ألست أنت التي تقولين دائمًا جملتك المعتادة «نوم الظالم عبادة»؟! فضحكت منه وقالت له: هيا أيها الكسول لقد جهزت لك ملابسك وحمامك أسرع حتى تلحق بالصلاة. فبادرها:

- سوف أصلي هنا لقد تأخرت. ودلف إلى الحمام الملحق بغرفة نومه بينما توجهت المرأة إلى الطابق الأرضي حيث تستعد هي أيضًا للخروج لزيارة بعض الصديقات ثم استدركت وهي على الدرج وتذكرت أنها لم تبلغه أنها أجرت اتصالاً مع ابنهما الذي يدرس الأدب الإنجليزي في إحدى الجامعات البريطانية وتوقفت لحظة ثم واصلت هبوطها الدرج بعدما بيتت النية لإبلاغه فيما بعد.

انطلق الشاب الذي لم يكمل عامه الثاني والعشرين حاملاً قيمه الروحية والثقافية التي تفتحت عليها عيناه هنا بدءًا من نعومة أظفاره وحتى أصبح شابا يافعًا وسط أسرة صالحة - أب وأم وشقيق هو الأصغر في ترتيب الأبناء بعد شقيقته التي تليه في الترتيب مباشرة. كانت الأسرة كأي أسرة عربية مسلمة تنتمي لوطن ومناخ ومجتمع عربي خالص في تقاليده وعاداته وقيمه.. ورغم الطفرة الهائلة التي فجرت أنماط الحياة التقليدية القديمة وغيرتها إلا أن جوهر هذه الحياة وخطوطها الأساسية وهيكلها لم يتغير، ربما تطورت أساليب الحياة وهذا أمر طبيعي إلا أن الجوهر والمضمون ظل مصونًا ومقدسًا.

ورغم المحاولات الذاتية أو لنقل الضغوط الذاتية التي تتلمس سبل الوصول لتلك المقدسات لتخدشها أو تنال منها إلا أن الأمر لا يعدو كونه محاولات فقط. انطلق الشاب بعد أن تهيأت له الفرصة والظروف إلى عالم آخر مغاير تمامًا ومبهر تمامًا أيضا.. عالم يضج بعنفوان حركي وأسلوب متسارع يتسم بالجنون.. بدا لصاحبنا في لحظة ما أنه وكأنه الإنسان يسابق ظله على الأرض وكأن الخلل في التوازن أمر سوف يصبح طبيعيا.. لنرى إذن. ما أن بدأ وجه الحياة يتغير هنا حتى أصبح من الضروري الانطلاق للتزود بالعلم والمعرفة الحديثة والنهل من ينابيعها هناك..

أصبح لا مفر من الاقتحام والمنازلة، وبالفعل كان الشاب قد قارب الثانية والعشرين من عمره حين ودعه أبوه أمام أبواب الدخول إلى المنطقة الممنوعة على غير المسافرين بعد أن التقط إحدى الدوريات الثقافية من مكتبة على الطريق ليتسلى بها خلال الرحلة ليستقل هو وزميلان له في مثل عمره الطائرة إلى مطار هيثرو، ليبقى هو ثم يغادر زميلاه لإكمال رحلتهم إلى نيويورك حيث يتابعان دراستهما في الولايات المتحدة الأمريكية. كانت موجات عارمة من الانفعالات المتناقضة تجتاح مشاعر الشاب ورفاقه خلال الرحلة فها هو الآن يخوض التجربة الأولى وحيدًا وغريبًا وفي أثناء الرحلة التي تخللتها

فترات ضحك وسوالف إلا أن فترات من السكون والصمت كانت تتخللها أيضا. لم يكن صمتًا مجردًا أو حتى نومًا، بل كان الصمت الذي يسبق عادة الأحداث الكبرى في حياتنا، أقصد في حياة ذلك الشاب وبالفعل فقد كان مقبلاً على حدث تاريخي بالنسبة له وهو ليس السفر بمعناه المجرد لكن المهمة التي ذهب لينجزها من أجله أولاً.. ثم من أجل والديه وأسرته ثم من أجل وطنه. لقد كان الأمر بالنسبة إليه مفصلاً تاريخيا وفي لحظات التفكير كان عقله يجوس في جنبات لا واعية ليجتر أحداث العمر الذي مضى منذ طفولته ثم صباه وحتى وصوله إلى اللحظة التي يجلس فيها على مقعد الطائرة مغادرًا إلى عالم آخر غريب بكل معنى الكلمة.. لقد زاره من قبل وذهب إليه ربما أكثر من مرة لكنها كانت رحلات صيفية برفقة الأسرة وكان هناك أصدقاء من وطنه.. ربما لكل ذلك لم يكن يشعر بأي وحشة أو غربة، اللهم إلا ذلك التغير في المكان والطقس والشوارع والأبنية وقليل من التحلل من القيود الاجتماعية التي كان سرعان ما يشعر بغربته النفسية حين كان يتحلل منها..

أما هذه المرة فقد كان الأمر مختلفًا. وتتوالى أحداث العمر لتسقط منها لحظات الشقاوة والعنف الصبياني ليستمع إلى الثناء والمديح من مدرسيه ووالديه على نبوغه وذكائه واستيعابه لدروسه، ليس ذلك فقط فهو يتذكر كيف أولع بالقراءة والاطلاع وكيف كان يعشق القراءة خاصة الأدب في أعمال الكبار حيث كانت هديته المفضلة رواية أدبية لهمينجواي أو ألبرتو مورافيا من الأدب المترجم رغم نبوغه العلمي الذي جعله يفضل الحصول على شهادة علمية في الأدب الإنجليزي. ويتذكر خلال لحظات الصمت الأحداث التي كانت تحاصره من خلال وسائل الإعلام، خاصة جهاز التلفاز بقنواته العديدة التي وفرها نظام الكيبل فيجن. لقد كان بداخله شاب عربي مسلم.. اكتشفه بقوة حين كانت الصور والأحداث والتفسيرات العلمية والتاريخية تتوالى داخله.. كان يشعر بالفعل أنه بدأ يواجه حياة أخرى وثقافة مغايرة ومجتمعًا غريبًا.

تنهد تنهيدة سريعة وهو ينتبه إلى المضيفة التي قطعت عليه استغراقه وهي تقدم له الطعام ثم بدأ حديث آخر مع أحد الزملاء المسافرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة إدارة الأعمال هناك، قال لزميله الذي سبق وقضى العامين الماضيين هناك في أمريكا كأول أعوام دراسته في لهجة مرحة:

- طبعا يا صديقي أمريكا غير.. ثم استطرد متسائلا وهو يقول:

- من المؤكد أنكم تستمتعون هناك وربما لا تشعرون بالوحشة.. أليس كذلك؟ فالتفت إليه زميله ثم هز رأسه قائلا:

- أي استمتاع تقصد؟ فقال له مفسرًا:

- أقصد الاستمتاع بكل مباهج الحياة هناك باعتباره بلدا جديدا غير بلدك ومجتمعا غير مجتمعك. فأجابه زميله بعد برهة صمت:

- ربما لأنه كما ذكرت بلد مغاير لمجتمعنا في ثقافته وعاداته تشعر بالمتعة لما تراه وتعيشه بعينك فقط.. ترى وتشهد وتصادق لكنك تشعردائما بغربتك الروحية والثقافية.. تشعر دائما بالغربة وأحيانا بالخوف. فتساءل الشاب مستفسرًا؟

- غربة روحية وخوف.. كيف؟

- سوف تجرب ذلك بنفسك وتعيش هذا الإحساس. فتساءل باهتمام وإصرار:

- ماذا تقصد بالله عليك؟ فأجابه زميله قائلا:

- ربما من الصعب أن أنقل لك إحساسا بشريا وإنسانيا خفيا، لكن يا صديقي أنت تعلم أنك عربي ومسلم تعيش في مجتمع غربي لا تنتمي إليه روحيا أو ثقافيا وغالبًا ما تشعر بعداء خفي ونظرات غير مريحة.

فقال الشاب: آه.. فهمت الآن ما تقصده لكنك قلت أيضًا في سياق إجابتك على سؤالي سوف تشعر بالخوف وهذا ما أريد أن أعرفه أيضًا.

فابتسم صديقه قائلا وهو يفسر له ما أراد معرفته: -إن المجتمع الأمريكي رغم الحرية التي يعيشها - أيا كانت تلك الحرية -يعيش أيضًا في خوف مزمن من الجريمة كالسرقة والقتل والاغتصاب. إنها سيناريو يومي في شوارع المدن الأمريكية وأحيائها. فهز الشاب رأسه موافقًا وهو يقول: نعم أعلم ذلك، إننا جميعا نرى ذلك عبر السينما الأمريكية والبرامج التليفزيونية والأخبار المقروءة.

ثم قال بعد برهة صمت: -لكن رغم كل ذلك فنحن لا نستطيع أن ننكر مدى التقدم الحضاري الذي وصلوا إليه، فقد تسيدوا العالم. فقال زميله موافقا: لا شك في ذلك.. ثم أشار إليه وهو يهم بتناول طعامه حيث باشرت المضيفة تقديم وجبة الطعام ليأكل هو أيضًا على أن يكملا فيما بعد وبدآ تناول طعامهما. بدا زميل الشاب الجالس بجواره في الطائرة راغبا في استكمال حديثه مع الشاب، ربما لإحساسه بأنه حصل على خبرة أكبر في التعامل مع المجتمع الغربي من خلال الفترة التي قضاها هناك خلال العامين الماضيين وأراد من خلال الحديث مع الشاب المسافر إلى بريطانيا لدراسة الأدب الإنجليزي أن ينقل له صورة عما سوف يلاقيه ويواجهه هناك وبشكل مبسط من خلال الحوار، وما أن انتهى من طعامه الذي تناوله بسرعة حتى قال مخاطبًا الشاب الذي يجاوره: -سوف تكون محظوظًا لو أنك تعرفت أو وجدت شبابا عربا آخرين يدرسون ويعيشون في نفس مدينتك ببريطانيا؛ فنظر الشاب مستغربًا ومستفسرًا. فعاجله الزميل قائلاً:

- سيخففون عنك وحشة البعد عن الأهل وآلام الغربة ويا حظك لو كانوا خليجيين.

فابتسم الشاب وهو يسأله: -أتمنى طبعا.. ولكن لماذا؟ فأجابه قائلاً: -حتى لا تفتقد الأكلات الخليجية الحلوة، إننا في أمريكا نتجمع أسبوعيا لنتناول عشاءنا جميعا من أطباقنا الخليجية الشهية في نزل أحد الزملاء، وضحكا معًا حين أبدى الشاب ملاحظة مرحة بقوله:

- إذن أرجو ألا تكون قد نسيت اصطحاب الكيرم والدامة حيث الورق متوفر هناك. وأردف الزميل وهو يميل على الشاب قائلاً: -ستتعلم الكثير خلال فترة دراستك في بريطانيا وسوف تواجه ما يجعلك تهتز من داخلك فاصمد يا صديقي إنها مجتمعات ربما ستلقى استحسانك وإعجابك. فرد عليه الشاب بقوله أعرف ذلك. فقال الزميل:

- تعرفه نظريا فقط أنت لم تعش التجربة حتى الآن.

فقال الشاب: - ماذا تقصد أيها الصديق؟ يا أخي أفصح عما تريد قوله بشكل جلي. فقال له الزميل:

- أنا لا أريد أن تتكون لديك صورة سلبية قبل أن تبدأ أيامك هناك ولكني أنصحك بأن تكون قويا. فقال الشاب وقد بدت عليه الجدية:

- اسمع إني أعرف من خلال معلوماتي الخاصة وسفراتي السابقة إلى هناك ما هي مصادر الخطورة في هذا المجتمع ولا عليك فنحن لها. فرد الزميل قائلا:

- أتعشم ذلك وأتمنى لك التوفيق. ثم تطلع ببصره إلى الجانب الآخر حيث يجلس الزميل الثالث ليجده يغط في النوم، ثم استأذن من الشاب للذهاب إلى حمام الطائرة ونهض من مكانه. وتحرك الشاب أيضًا من مكانه إلى الممر ليتمشى قليلاً ويحرك رجليه متململاً للعودة إلى مقعده سريعا حيث كانت المضيفات بدأن حركة جمع بقايا الطعام من أمام الركاب خلال تلك اللحظات، الأمر الذي اضطره للعودة إلى مقعده.

لم يكن الشاب رغم ذخيرته من المعرفة وخبرته التي اكتسبها خلال حياته التي لم تزد على عقدين ونيف من الزمن مدركا لحقيقة الأمر وخطورته، ليس من وجهة نظره الشخصية أو لنقل ليست بشكل شخصي بل بصورة عامة كما لم يكن يدرك ماهية التوجهات المخيفة لقوى هلامية خفية تملك قوة هائلة من القدرة والنفوذ والفعالية تستهدف ليس فقط شخصه أو باعتباره فردا يمثل جيلا في أمة بل تستهدف اغتيال أمة تحمل أشرف رسالة إنسانية إلى البشرية من خلال تاريخها وتراثها وثقافتها وبالتالي مستقبلها. ربما أيضًا لم يكن يدرك مغزى الأحداث التي تحوطه أو التي تحدث يوميا في منطقته ولم يكن في حاجة ليربط بين كل تلك الأحداث بشكل منطقي ليواجه في النهاية صورة بالغة القتامة والكآبة.

كان عربيا مسلما من منطقة تعتبر إحدى أقرب المناطق للعراقة والتقاليد والثقافة العربية القادمة مع أيام التاريخ منذ التحول الإنساني الكبير قبل ألف وأربعمائة عام. ويسرح الفتى الشاب في خياله مستعرضا تفاصيل حياته بأيامها وسنواتها، هذا المناخ الاجتماعي المستقر الوادع والآمن والذي يستمد وداعته وأمنه من ينابيع شريعة سمحاء غرست بالإيمان بذور المودة والتراحم وأرست قواعد عظيمة يندر وجودها الآن في مجتمعات أخرى تنظر للأديان والشرائع السماوية كأنها ديكور أو أحد الأشكال والصور الثانوية التي لا تلزم أصحابها إلا بما يرونه ويريدونه. باسم الحرية.. حرية؟.. أي حرية؟ ويبتسم الشاب ابتسامة رثاء وإشفاق ثم يتذكر، ويتذكر أشياء وأشياء ليشعر بدفء داخلي وهو يسترجع في مخيلته حب الأهل واللعب بالفريج مع الأقران وأصدقاء الطفولة.. ثم يتذكر كيف كانت الهدايا تنهال عليه لتفوقه ليس فقط في علوم المدرسة بل وعلي الأخص عبارات المديح والإعجاب وهو يتلو سور القرآن الكريم وما حفظه منها، ثم يتذكر مدرس مادة العلوم الشرعية وهو يطريه أمام زملائه تارة وأمام والده تارة أخري. ثم يعود ليتذكر كيف كان يصر على الذهاب مع والده للصلاة في المسجد خاصة يوم الجمعة، وكيف كانت أمه تعتني بمظهره ذلك اليوم وهي تعطره ثم تقبله وهو ينادي على والده في عجلة خشية أن يذهب ويتركه في البيت، ثم يعود بذاكرته معرجًا على كتب التاريخ وشرح أساتذته لعلوم التاريخ وسير الفتوحات وأمجادها وكيف كان يعشق مادة التاريخ وقصصها وأحداثها. وتأخذه الذكريات التي استدعت شريطها المليء بالصور والأحداث، هذه الرحلة المصيرية التي تأخذه إلى عالم آخر ومجتمع ذي ثقافة وتراث وعادات مغايرة تمامًا لدرجة ربما تخيل معها الشاب قبل أن يبدأ احتكاكه الحقيقي بها أنها من عالم آخر لا يمت له بصلة..

تأخذه تلك الذكريات إلى حافات الأحداث المأساوية التي تتلاحق في بلاده العربية والإسلامية لتصيب في مقتل أناسا ينتمي لهم وينتمون إليه.. ثم يتذكر التعليقات التي كانت تصدر من الجميع ومنه هو شخصيا ومدى الغضب العارم الذي كان يجتاح الصدور حين يظهر في نبرة التعليقات. ثم يتذكر ذلك الحوار الذي جرى بين والده ووالدته من ناحية وبينه من ناحية أخرى بعدما انتهى من إعداد حقائبه للسفر حين قال له أبوه في لهجة رقيقة لكنها حازمة:

- يا بني اعلم أنك سوف تسافر إلى بلاد تختلف عن بلادنا في عاداتها وتقاليدها ولغتها، أرجو أن تكون عند حسن ظني بك. فأجابه الابن قائلاً وهو يبتسم:

- أعلم تماما يا أبي وبالطبع سوف أكون عند حسن ظنك بي. فأردف الأب قائلا في شكل تساؤل:

- هل فهمت ما أعنيه؟ فأجابه الابن:

- طبعا بكل تأكيد سأبذل ما بوسعي للتحصيل العلمي والحصول على شهادة التخصص، وإن شاء الله أوفَّق في الحصول على تقديرات عالية. فقاطعه أبوه قائلا:

- ليس هذا ما أقصده، إن ما قصدته يعادل أهمية تحصيل العلم بل يزيد عنها في نظري أهمية وهو ألا تنسى أنك عربي ومسلم لك عاداتك وتقاليدك والتزامك الروحي. فاتسعت ابتسامة الابن واحمر وجهه فتطوعت أمه قائلة وهي تُربت بيمناها على كتفه:

- يقصد أبوك أن لا تغريك الأوضاع السائدة في تلك البلاد وأنت شاب وتعرف طبيعة مجتمعاتهم المتحررة من القيود. فصمت الشاب وهو ينظر باتجاه أبيه منتظرًا تعليقًا حيث قال معقبًا على حديث زوجته أمام الشاب:

- ربما تكون قد فهمت الآن ما أعنيه وأود أن أزيد على كلام أمك أن ما يعتبر عيبًا وحرامًا هنا في مجتمعنا يحللونه هناك ويعتبرونه شيئًا عاديا وطبيعيا، وبالطبع المغريات هناك قوية لكن يجب أن تعلم أيضًا أن هناك أمراضًا فتاكة لا علاج لها إلا الموت فاحرص على دينك وتمسك بعقيدتك لتحصن نفسك من تلك المغريات. كان الفتى الشاب الذي يخترق ربيع العمر بقوة يجتر الذكريات والمسافات تندفع خلفه إلى رحم الماضي بسرعة الطائرة السابحة في الفضاء وهو في طريقه إلى عالم آخر ربما كان مبهرًا وجذابًا إلى أبعد الحدود وربما كانت مجتمعات ذلك العالم مهوى أفئدة ملايين من البشر يتمنون لو أنهم عاشوا في تلك المجتمعات نتيجة لانبهارهم اللا محدود بتلك البانوراما الجذابة والرائعة المنعكسة عن قشوره الخارجية، لكنهم بكل تأكيد لم يطلعوا على جوهر تلك المجتمعات ولا على لبها الذي تغلفه برودة هائلة وجفاف إنساني مدمر.

نعم هناك حرية الإنسان كما أسموها لكنهم ظلموا الإنسان في الحقيقة وغلوا إنسانيته وآدميته بتلك الحرية.. وجعلوه في نهاية الأمر عبدا لشهواته وغرائزه.. لقد أكدوا وأصلوا عبوديته لكن لمن...؟ لم يكن الفتى الشاب قد وصل بعد إلى تلك النتيجة لكنه كان يعيش بفكره المتوقد وثقافته الجيدة مع مصطلحات وأحداث أخذت تترابط وتتقارب شيئًا فشيئًا وبتقاربها وترابطها بدأت صور هائلة القبح تتشكل في ذاكرته.. لتبهت معها صور الانبهار الحضاري التي كانت سائدة أو ربما كانت واضحة تماما في ثنايا ذاكرته ومساحات عقله ووعيه.. حقوق الإنسان.. السلام .. العدالة.. المساواة.. استقلال الشعوب وسيادتها.. والكثير الكثير من الكلمات والجمل المدوية ذات الرنين الإنساني العالي والمعاني العظيمة النبل والهدف. ثم يصطدم حين تترابط وتتقارب تلك المصطلحات الرائعة مع الضحايا والأشلاء الممزقة والقذائف الجهنمية المتطورة وأسلحة الدمار الشامل ولسان القوة والقهر النفسي والوعود الكاذبة ثم التهديد الصريح.. ليس ذلك فقط بل إظهار الحقد العلني وإعلان الحرب على أثمن ما امتلكه هو .. دينه العظيم.. بالطبع بشكل رخيص ومبتذل ويدعو للغثيان. ويشكل التفكير العميق

ضغطًا على مراكزه العصبية، الأمر الذي يرفع داخله من حالة التحفز فيستفيق ثم يهرب من هذه الحالة بالإفاقة الفجائية في اللحظة التي كان فيها زميله يهم بالجلوس على المقعد بعد عودته من جولته داخل الطائرة.

فبادره قائلاً : - ألا ترى أن السفر الطويل بالطائرة ممل؟! فأجابه زميله قائلاً: - ومتعب أيضًا وبالنسبة لك لا توجد مشكلة فسوف تتركنا في لندن أما نحن فسنواصل السفر لساعات طويلة. فرد عليه الشاب قائلاً: - في حفظ الله تصلون.. لا عليك تهون الرحلة من أجل الهدف . - بكل تأكيد، هكذا عقب الزميل.. ثم نظر في ساعته وأدار بعدها وجهه للشاب قائلاً: نحن الآن فوق أوربا ثم رفع وجهه لينظر إلى الشاشة التليفزيونية المواجهة ليرى الطائرة وهي تستعد لعبور الأجواء الألمانية متجهة نحو بحر الشمال، فابتسم وقال: ربما أقل من ساعتين ونكون في هيثرو بإذن الله، ثم استطرد قائلاً: استسمحك في أن أغفو قليلاً حيث أشعر ببعض الإجهاد.

كانت حبات المطر تتقافز على زجاج نافذة الطائرة وكان الطقس رماديا فوق لندن بينما كانت الطائرة تنزلق صوب مدرج الهبوط، وما هي إلا دقائق حتى كان الركاب يغادرونها لإنهاء إجراءات الخروج و سار الشاب برفقة زميليه اللذين سيقضيان ليلة أو ليلتين في لندن يواصلان بعدها سفرهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد أن أنهوا إجراءات الجوازات توجهوا جميعًا إلى حيث تسلموا حقائبهم ومن ثم إلى بوابة الخروج، حيث كانت إحدى سيارات الملحقية الثقافية تنتظر الشاب الذي اقترح عليه زميلاه أن يستقلا معه السيارة، وبالفعل توجه الجميع إلى قلب المدينة حيث نزل الزميلان من السيارة في شارع كروميل حيث سيقضيان ليلتهما في أحد الفنادق الصغيرة بينما توجه الشاب بصحبة السائق إلى مقر الملحقية الثقافية بالسفارة حيث أنهى الإجراءات الأولية لوصوله وحيث أبلغ بالتفاصيل وإجراءات الالتحاق والتي سينهيها معه الموظف المختص، وبعد إنهاء الإجراءات الأولية والترتيبات مع الملحقية الثقافية توجه إلى الفندق الذي سيقضي به أيامه الأولى حتى يستأجر مسكنًا مناسبًا لإقامته. توجه الشاب مع مرافقه وهو أحد الموظفين المختصين بالملحقية إلى فندق صغير مناسب في شارع كروميل حيث استقبلته موظفة الاستقبال المسئولة، وخلال دقائق كان في غرفته الصغيرة المرتبة والنظيفة والملحق بها حمام نظيف بعد أن ودعه الموظف على أمل أن يلتقيا صبيحة الاثنين، فقد كان اليوم جمعة وكانت فرصته للتجول بحرية خلال يومي السبت و الأحد.

وما أن أصبح وحده داخل غرفته حتى شعر بالإجهاد وأن عليه أن يحصل على قسط من الراحة، كما تذكر بحزن أنه لم يؤد صلاة الجمعة وبعد أن حصل على حمام بارد ومنعش أدى صلاته قصرا ثم استلقى على فراشه وتذكر حديث المشرفة على الفندق حول مواعيد الإفطار و بعض الأمور الأخرى كاستعمال الهاتف وطلب المساعدة فطلب إليها أن تعطيه خط التليفون حيث اتصل بوالدته وطمأنها على

سلامة وصوله و سأل عن والده الذى كان خارج المنزل حينئذ ثم ودعها على أمل الاتصال مرة أخرى، وألقى بجسده على الفراش وراح في نوم عميق.

كانت الساعة قد قاربت السادسة مساء بتوقيت لندن حين مد الشاب يده ليلتقط ساعته من على الطاولة المجاورة لفراشه، نهض بعدها حيث اغتسل وبدل ملابسه وهو ينوي التجول قليلا في وسط المدينة، ولم ينس معطفه الذي حمله على كتفه وهبط الدرج في خفة و نشاط حيث كانت غرفته بالطابق الأول، الأمر الذي لا يحتاج معه إلى استخدام المصعد، وما أن وصل إلى نهاية الدرج حتى شاهد زميليه اللذين قدما معه على الطائرة في طريقهما إلى أمريكا أمام موظفة الاستقبال وهما يتهيآن للخروج إلى المدينة بعد أن أمضيا ساعات كافية للراحة من إجهاد السفر وفوجئ بأنهما ينزلان معه في نفس الفندق. وكانت فرصة طيبة للخروج معا، وبالفعل غادروا جميعًا الفندق. ولم يكن لدى أي منهم تخطيط مسبق لزيارة أماكن معينة، واقترحوا معًا تناول طعام الغداء ثم الذهاب إلى أحد المقاهي العربية التي توجد بها عادة تجمعات عربية من مختلف الجنسيات، ورغم الطقس البارد والرذاذ الخفيف إلا أنهم ساروا باتجاه شارع ليكسهام جاردن ومن هناك استقلوا أحد التاكسيات إلى أحد المطاعم التي يؤمها العرب في نهاية شارع كيسنجتون حيث تناولوا طعامهم ومن هناك انطلقوا بسيارة تاكسي أخرى إلى وايت ليز وهي أماكن معروفة لدى العرب الخليجيين الذين يؤمونها خلال وجودهم في موسم الصيف في مدينة لندن حيث توجد بها المقاهي والمطاعم التي تقدم وجبات خفيفة إضافة إلى السينما والمتاجر الشهيرة التي انتهى دوامها وأغلقت أبوابها بعد السادسة مساء، كانوا سعداء بوجودهم معا، وقال الشاب خلال تبادلهم الحديث:

- ليتكم كنتم معي هنا.. متى ستغادرون لندن؟ فأجابه الزميل الذي لم يكن يجلس بجانبه في الطائرة: - لقد أكدنا الحجز على الأحد صباحًا وسوف نمضي هنا ليلتين معك. وعقب الزميل الآخر قائلاً:

-أعلم إحساسك الآن ربما تشعر بوحشة لكنك هنا شيئًا فشيئًا ستتأقلم على الوضع فلا تتعجل الأمر وستكون صداقات جديدة تعجبك ثم غمز بطرف عينيه وهو يبتسم. فأجاب الشاب قائلاً: على رسلك يا عزيزي، إن جل تفكيري الآن في الالتحاق بالجامعة هنا وكيفية الحياة وحيدًا في هذا المجتمع. فقال له صديقه الزميل:

- كل هذه الأشياء ستسوى خلال أيام قليلة أما الباقي فأراهنك عليه. فقال الشاب:

- أراك واثقا مما تقول. فرد عليه وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

- لقد كنا مثلك، إنها الحياة هنا يا صديقي وسوف تتعلم الكثير، إن السفر والحياة في مجتمعات مغايرة لهو مدرسة بحد ذاته. فرد عليه الشاب بسرعة:

- صدقت وأشهد على ذلك وأزيدك أيها الصديق لقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} (الحجرات:13) وأفلاطون يقول: «المعرفة تتولد باحتكاك النفوس» نظر الزميل طويلا للشاب ثم قال له: هنا سوف تتعلم وتقاسي معا، المهم أن تكون جلدا وصبورا وقويا في نفس الوقت.

جاءت فتاة ربيعية العمر تعمل في المقهى الذي جلسوا فيه وطلب الجميع القهوة وكانت بيضاء على الطريقة الأمريكية. كان الشاب يفكر في حديث الزميل المتشائم دائما حول الغرب وكأنه غابة سكانها متوحشون وكان بالطبع غير موافق تماما على تعميم النظرة بهذه الطريقة باعتبار أنه شاب مثقف يحوز معلومات جيدة حول الغرب من خلال وسائل المعرفة التي وفرتها ثورة الاتصالات ومن قراءاته وإطلاعه على الأدب الغربي وما فيه من صور إنسانية وفنية رفيعة، إلا أن الأحداث التي تقع بصورة درامية شبه يومية من قهر واحتلال وتحيز فاضح وظلم يختصون به قومه على وجه التمييز وعداء تقليدي غير مبرر وغير مقنع جعلته ومنذ زمن بعيد يسجل نقاطا فى نفسه لغير صالح الغرب. ليس ذلك فقط بل ذلك الشعور المتنامي لدي العرب والمسلمين بأن ثمة حربا منظمة وشرسة غير معلنة تتضح معالمها كل يوم وبشكل سافر ضدهم من قبل الغرب ولدرجة أنه بدأت تتبلور داخل نفسه رؤية خاصة وذاتية بأن العداء الغربي المحسوس بقوة وغير المعلن يحمل خصائص عداء أصيل وتاريخي كما يحمل صفة الإصرار والاستمرار، وللحقيقة لم يكن يدري تمامًا أي مبرر يحمل الغرب على هذا الاتجاه الكريه والبغيض وغير المبرر.

كان يعلم بحكم دراسته و إطلاعه أن بموجب التحولات التاريخية وقوانين الجغرافيا حدثت مواجهات كبيرة بين الشرق والغرب ولم تكن تلك المواجهات في حقيقتها تحمل روح الاستعباد والاستغلال والعنصرية على الأقل من جانب العرب المسلمين فالمؤكد أنهم كانوا دعاة رسالة إنسانية وحضارية عظيمة وهي رسالة النور التي أنزلت على رسول الله للإنسانية والبشرية كلها محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم وهي رسالة حملت في صلبها نور التوحيد وقيم العدل والحرية والمساواة في أجلى معانيها. فهي قبس من نور أهدته السماء لبني البشر في وقت كانت فيه البشرية على اختلاف أجناسها غارقة في مستنقع آسن من دياجير الجهل وغياهب الظلم والفساد.

وحين بدأ التراجع جاء الغرب بجحافله حاملين راية الصليب متحججين للاستيلاء على القدس الشريف، فدخلوها ليجعلوا دماء المسلمين تسيل أنهارًا في شوارعها في همجية وتوحش اعترفوا هم بها في وصفهم لما حدث، خاصة مفكريهم وقساوستهم حيث يصف كاهن مدينة لوبوي »ريموند واجيل« ما فعلته الجيوش الصليبية حين دخلت مدينة القدس وبالنص: «... حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها فقطعت رءوس بعضهم فكان أقل ما أصابهم، وبقرت

بطون بعضهم فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رءوس العرب وأيديهم وأرجلهم فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن هذا لم يكن سوى بعض ما نالوه». ثم روى الكاهن نفسه خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر رضي الله عنه ويقول وهو يصف ما حدث: «لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان؛ فكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة». هذا ما يقوله رواتهم في وصفهم للهمجية والدموية والوحشية التي ميزت هجمتهم على المسلمين.

ويسجل التاريخ أن الصليبيين حينما دخلوا بيت المقدس في الخامس عشر من مايو عام 1099 ميلادية ذبحوا أكثر من سبعين ألف مسلم حتى سبحت الخيل إلى صدورها في الدماء، وفي أنطاكية قتلوا أكثر من مائة ألف مسلم. كان الشاب يتذكر وتتوالى الأحداث على شريط ذاكرته وهو يرتجف من داخله غضبا وهلعا، كان كالمرجل يغلي في تلك اللحظة التي فجرها ذلك الزميل .. لكن الشاب قبل مجيئه إلى لندن كان يتعامل مع تلك الأحداث بشكلها وسياقها التاريخي إلى أن حانت اللحظة التي بدأ يربط فيها بين تلك الأحداث وما يحدث الآن على أرض الواقع في بلاد عربية ومدن إسلامية وها هي القدس الحزينة الجريحة تصبح مرة أخرى بطلة لتاريخ جديد وغزو آخر لا ينتهي ولا يظهر له فجر وبإمضائهم لكن بشكل آخر.

ماذا يريدون؟ ولماذا نحن دائما مستهدفون منهم على وجه الخصوص؟ تساءل بصوت مرتفع. ونظر زميله إليه بدهشة وسأله أحدهم:

- من هم الذين تقصدهم؟ فرد قائلا: -أقصد الغرب في تساؤلي. وفهم الزميل المحاور ما يرمي إليه الشاب فقال له:

- هنا بيت القصيد .. ماذا يريدون؟ هذا هو السؤال المشكلة. ثم استطرد قائلاً: إنهم يريدون أشياء لا تمنح ولا تعطى إلا بالفناء.. بالموت. لابد للأمة أن تفنى قبل أن تعطيهم ما يريدون.

- عفوا هل لك أن توضح أكثر معنى حديثك؟ هكذا تساءل الزميل الآخر. فأجاب وهو يرشف قهوته الأمريكية:

- إنهم يستهدفون أغلى وأثمن ما نملك.. يستهدفون تجريدنا من ثقافتنا وتاريخنا.. غاية الأمر أنهم يعرفون ماذا يريدون منا.. لقد قرأوا التاريخ جيدًا وعلموا أننا أمة تملك كنوزًا هائلة من القوة الروحية المتمثلة في عقيدة الإسلام وشريعته السمحة، إنهم يريدون اغتيال الروح العظيمة التي تتسلح بها الأمة،

تلك الروح التي عرفوا قوتها وجبروتها وتأثيرها خلال أحداث التاريخ حين دخل العرب المسلمون الأندلس من الغرب وحين وصل المسلمون إلى وسط أوربا قادمين من الشرق.

فقاطعه زميله قائلاً: - يا رجل أنت تتحدث كما لو كنت مدرسا للتاريخ في مدرسة إعدادية يشرح لتلاميذه... إنها كانت فترة، في التاريخ وانتهت ولا علاقة لذلك بما يحدث الآن. فقاطعه الشاب قائلا: - على رسلك أيها الزميل العزيز إن التاريخ هو المؤشر الحقيقي والمفسر لكل الأحداث التي تقع رغم تباعد مراحلها المختلفة زمنيا، إن التاريخ في رأيي هو المستقبل رغم أنه يسجل أحداثًا مضت وانقضت أيامها وأحداثها ومن خلال دروسه وعبره يتضح المستقبل الحقيقي للإنسان الذي يستهدف الوصول إلى ما يريد ويبتغي.

- إذن ما علاقة ما تقوله بموضوعنا؟ هكذا تساءل الزميل الآخر. اعتدل الشاب في جلسته وهو يحرك فنجان القهوة في يده على الطاولة ثم قال وهو ينظر إلى الزميل المحاور والأكثر ثقافة وهو زميل مقعد الطائرة، ربما لإحساسه بأنه سوف يؤيده في ما يقوله:

- الغرب ينظر حضاريا وثقافيا إلى جميع الشعوب الأخرى في العالم على أنهم توابع، و أن الغرب هو مركز الحضارة ومنشئها وصانعها الوحيد ولا دخل للشعوب الأخرى في صنعها. كما أنه يعتقد بأن له الحق في أن يفرض ما يشاء ويأخذ ما يشاء نهبا وظلما باعتباره حقا له، كل ذلك تحت مقولة عبء الرجل الأبيض. فقاطعه الزميل محتدا: -وماذا في ذلك؟ إنهم بالفعل - أي الغرب - صناع الحضارة ومن حقهم أن يفهموا ما يريدون كيف شاءوا.. إنهم الأقوى ومن حق القوي أن يفرض إرادته.. هذا هو المنطق الذي يقبله العقل المعاصر، ثم إنهم يحترمون الإنسان وحقوقه ويدافعون عنها.

- في حديثك شيء من الصحة خاصة في مقولة إنهم الأقوى، أما قضية أنهم الأقوى ومن حق القوي أن يفرض إرادته وأنهم يحترمون حقوق الإنسان فاسمح لي أن أخالفك الرأي في ذلك. فتدخل الزميل الآخر الأكثر ثقافة قائلاً:

- دعونا من هذا الجدل البيزنطي الذي لن يؤدي إلى نتيجة، ثم وجه حديثه للشاب قائلاً: أنصحك بأن تعد نفسك لمحاورات ومواجهات من هذا النوع مع من ستتعامل معهم وتصادقهم في تلك المجتمعات.. لنذهب الآن نتمش قليلاً في هذا الشارع الذي لا يهدأ. غادر الشاب وزملاؤه مبنى الوايت ليز ثم اتجهوا يمينا حيث شارع كوينزواي المزدحم عادة برواد المقاهي والمحلات والمكتبات وبعدما تجاوزوا إشارة المرور بخطوات قليلة كانت هناك مكتبة لبيع الكتب والصحف فعرجوا عليها حيث ابتاع الشاب وزملاؤه بعض الكتب والمجلات والصحف. وقبل أن يغادروا المكتبة قال رفيق مقعد الطائرة للزملاء:

إن هناك إعلانًا لفيلم سينمائي أمريكي.. يعرض لأول مرة في لندن للممثل أرنولد شوارزينجير فدعونا نشاهد هذا الفيلم معا قبل أن نفترق، إن الغد أمامنا فما رأيكم؟

فقال الشاب: - فكرة طيبة.. واتفق الجميع على مشاهدة الفيلم الجديد الذي سيعرض في قاعة سينما الإمباير بالبيكاديللي في الغد، وعليه اقترح الزميل جولة في منطقة البيكاديللي واستقلوا معا سيارة تاكسي حيث غادروها قبل ميدان البيكاديللي بأمتار قليلة وتوجهوا سيرا على الأقدام إلى ليستر سكوير تلك المنطقة التي لا تهدأ، وكانت إحدى الفرق الموسيقية المكونة من ثلاثة شباب بدا من ملامحهم أنهم من أمريكا الجنوبية يعزفون مقطوعات موسيقية شعبية من فلكور بلادهم اجتذبت كثيرين أخذوا يتفرجون عليهم ويرمون بعض القطع المعدنية النقدية الصغيرة في حافظة إحدى الآلات الموسيقية المفتوحة لهذا الغرض، وعلى جانب قريب كان هناك شابان يتعانقان بشكل مخجل، الأمر الذي جعل الشاب يلكز زميليه لينبهما إلى ما يحدث وهو منزعج. كان ميدان ليستر سكوير غاصا بنماذج غريبة من البشر شباب وشابات بأشكال مختلفة وأوضاع شاذة وملابس غريبة. وترك الزملاء الثلاثة مشاهدة الفرقة الموسيقية وانصرفوا يتمشون على أقدامهم وهم يشاهدون الأندية الليلية وأولئك الرجال السود المفتولي العضلات وهم يقفون على أبوابها ويشاهدون عالما رأوه من قبل عشرات المرات وكأنهم كانوا يرونه لأول مرة. وقال الشاب مُعَلِّقًا: -عالم غريب وعجيب، إني أشتم رائحة ضياع إنساني مخيف هنا، وهذا يجعلني أشعر بحنين غريب إلى بلادي. فقال أحد الزميلين وهو يضحك: -لا تتعجب يا صديقي، إننا شعوب متخلفة أو هكذا هم يتصوروننا. ثم نظر إلى زميله الآخر قائلاً: لقد بدأ صاحبنا يداهمه مرض الحنين إلى الوطن. فقال الشاب: -إذا كانت مجتمعاتنا وحياتنا ونحن متخلفين في نظرهم فإنني أفضل أن نظل في تخلف دائم. فتحدث الزميل الآخر مردفًا وقد تجاهل ملاحظة زميله: -نحن أيضًا بدأنا نشاهد في بلادنا العربية والإسلامية بعض شبابنا وهم يقلدون مثل تلك الصرعات الغربية ويتشبهون بهم بشكل يدعو للرثاء والسخرية.

أجاب الشاب زميله قائلاً: -للأسف نعم لكن تبقى القاعدة أو السواد الأعظم من شبابنا ملتزمًا وتنبذ هذه الأشكال من الصرعات.. ثم تساءل قائلاً: -يا أخي لا أستطيع أن أتصور كيف يقلد بعض شبابنا هؤلاء الناس ألا يخجلون؟ فأجابه زميله ضاحكًا وهو يمازحه: -يا أخي لا تكن متخلفًا، إنها الحضارة والمدنية والحرية. فرد الشاب: -أي حضارة يا عمي؟! دعهم يولون إنهم مرضي. فأجاب الزميل: -لا ليسوا مرضى إنهم مشوهون نفسيا فقدوا الثقة في نفوسهم أولاً ثم في تراثهم.. دعنا نقول ذلك. فقال الشاب بثقة:

- الجهل يا صديقي.. إنه العمى الروحي والضحالة الثقافية وفوق هذا وذاك البعد عن الدين والعقيدة، إنها مأساة وللأسف نجد أحيانًا بعض المؤيدين لهم. وكانوا قد وصلوا أمام محل شهير للآيس كريم فقال

الشاب: دعوني أقدم لكم دعوة مفتوحة لتناول الآيس كريم من هذا المحل... ودخلوا جميعًا لتناول الآيس كريم، بينما كان رذاذ المطر يتساقط خفيفًا على أرض الشارع المتسع والمقابل للساحة.

غادرت مجموعة الأصدقاء ميدان ليستر سكوير وكان المطر قد توقف حيث استقلوا قطار الأنفاق من محطة بيكاديللي سيركس حتى محطة جلوستر حيث غادروا مترجلين سيرًا على الأقدام باتجاه فندقهم الصغير وهم يتبادلون الأحاديث فيما بينهم في حكايات ومواقف طريفة واجهتهم خلال فترات مختلفة من حياتهم حتى وصلوا إلى الفندق، حيث أخذوا مفاتيح غرفهم من الاستقبال حيث كان هناك موظف آخر بعد أن انتهى دوام بعد الظهر للموظفة التي كانت موجودة حين وصول الشاب من مقر الملحقية الثقافية والذي بدت على ملامحه أنه شرقي. وبعد حوار قصير تبين أنه من أصل بنغالي ومسلم الديانة وكان ودودًا في حديثه معهم ثم دلفوا إلى قاعة الإفطار المتسعة حيث يتناول رواد الفندق إفطارهم صباحًا فيها والذي يقدمه الفندق مجانًا للمقيمين فيه ولم يكن هناك غير وجبة الإفطار التي يقدمها الفندق ذو النجوم الثلاثة ماعدا معدات القهوة والشاي التي تقدم مجانًا وطول اليوم للنزلاء حسب رغبتهم وتطوع أحد الزملاء بإعداد القهوة بالحليب حيث تحلقوا حول إحدى الطاولات بجوار نافذة تطل على الشارع الرئيسي الذي لا تهدأ فيه السيارات ليلاً ونهارًا والتي كانت أرضيته تلمع بفعل تبللها بالمطر وتنعكس عليها أضواء أعمدة الإضاءة وأنوار السيارات المتسارعة وقد تنهد الزميل الآخر تنهيدة طويلة لفتت نظر الشاب الذي بادره قائلاً وهو يضحك:

- خيرًا إن شاء الله ، ما الذي يجعلك تتنهد هكذا؟ فأجابه بنظرة طويلة وهو يزم شفتيه:

- عالم عجيب .. هنا في معمعة الحضارة والتقدم يعيش الإنسان منا غربة شاملة بجسده وروحه. فقال الشاب: لا شك أن في ذلك فرقًا شاسعًا بين أن تكون في وطنك حتى ولو كنت في أقصى مكان فيه تشعر وكأنك في بيتك وبين أهلك.. ثم أردف وهو يعتدل في جلسته: لا تنس أن التكوين النفسي والنسيج الروحي والثقافي المختلف يؤثر إلى حد بعيد في هذا الإحساس والشعور ثم يأتي التصادم أو الأحداث التي يواجهها الإنسان والتي تؤكد هذه الغربة الروحية والنفسية كما أسلفت وكما فهمته من حديثك معي في الطائرة ويبدو أنني سوف أعد نفسي للتوافق مع هذا الوضع في فترة الدراسة هنا. فقال الزميل موافقًا: -تمامًا، هيئ نفسك للتأقلم مع أسلوب الحياة هنا.

فتدخل الزميل الثاني قائلاً: -ماذا عن الغد.. إن أمامنا فرصة الغد للتجول وزيارة أماكن أخرى في لندن قبل أن نطير إلى وجهتنا. دعونا نبرمج يوم غد. فأجابه زميله قائلاً والشاب يستمع: - ما رأيك في متحف التاريخ الطبيعي ومتحف مدام توسو؟

فقال الشاب بسرعة: - إن متحف التاريخ الطبيعي قريب جدا من هنا. فابتسم الزميل قائلاً ومتحف مدام توسو أيضًا، ثم السينما في المساء. فنظر الشاب مستغربًا حيث عاجله الزميل قائلاً:

- من أمام هذا الفندق تستطيع أن تستقل الباص رقم 74 الذي يقلك حتى متحف مدام توسو... فضحكوا ثم نهضوا متوجهين كل إلى غرفته على أمل اللقاء على طاولة الإفطار صباحًا.

كانت غرفة رقم 115 تطل على الشارع الرئيسي في الطابق الأول والتي كانت من نصيب الشاب الذي ذهب ليدرس اللغة والأدب الإنجليزي في لندن وكانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا حين دق الهاتف بجوار الفراش، ورغم أنها الليلة الأولى التي قضاها الشاب في لندن خلال رحلته تلك، إلا أنه نام نومًا هادئًا وعميقًا، وعلى أثر دقات الهاتف الذي أيقظه استدار ومد يده رافعًا السماعة ولم يرد عليه أحد، فنظر إلى ساعته التي كانت تشير خلال تلك اللحظة إلى الثامنة تقريبًا فنهض من فراشه حيث اغتسل وتذكر أنه لم يؤد صلاة المغرب والعشاء سويا بالأمس، كما تذكر وهو مقطب الجبين أن عليه أن يجد حلا لمشكلة القبلة، أما الصلاة فقد تذكر أنه سيقصر حتى يستقر في مكانه الدائم.

ارتدي ملابسه ثم أدى صلاته وبينما كان يهم بمغادرة الغرفة دق الهاتف وكان أحد الزملاء يحادثه من الاستقبال ليستعجله حيث تناولوا فطورهم معًا على طاولة واحدة حيث كانت قاعة الفطور غاصة بالنزلاء الذين بدا أنهم جميعًا أوربيون وكان طاقم خدمة النزلاء في الفندق من الفتيات الأوربيات حيث تولت إحداهن تقديم الطعام لهم ولاحظ الشاب وزملاؤه أنها تقوم بخدمتهم على مضض وكأنها كارهة للعمل ورغم جديتها وعبوسها في أثناء قيامها بخدمتهم إلا أنها كانت تتعامل مع رواد الطاولات الأخرى بمرح وسعادة كما كانت توزع ابتساماتها هناك وتعليقاتها اللطيفة الضاحكة مع الآخرين. ولم يعلق الأصدقاء لكنهم تبادلوا نظرات ربما كانت ذات مغزى لكن الأمر الذي لاحظه الشاب واستلفت نظره أن تلك الفتاة الشابة الممتلئة قليلاً ذات البشرة البيضاء والشعر القصير لم تكن تتحدث الإنجليزية بلكنة أهلها وفهم من ذلك أنها أوربية لكن ليست من إنجلترا. وفي التاسعة والنصف انطلقت مجموعة الزملاء صوب متحف التاريخ الطبيعي سيرًا على الأقدام وكان الطقس مناسبًا رغم غياب الشمس حيث علق أحد الزملاء قائلاً:

- يعجبني جدا هذا الطقس وأشعر بانتعاش مع تلك اللفحات الباردة المنعشة.

فأجاب الزميل الآخر مازحًا: -وأنا لا يعجبني هذا الطقس وأشعر فيه بالكآبة. فعقب الشاب قائلاً:

- فديت بلادي حرها وبردها. ثم استطرد متحمسًا: - يا أخي شعور عجيب ومزعج لا يكاد يفارق الإنسان هنا أو في البلاد التي تختلف عنا في لغتها وثقافتها وعقيدتها، إنه شعور قوي وملموس بالغربة.. لا لا ليست الغربة تحديدًا بل أكثر من ذلك.. إنه خليط من الرهبة والتوجس وافتقاد الأمن

الروحي والطمأنينة. فقال زميله الذي لم يكن بجانبه في الطائرة: -ألا ترى أنك تبالغ قليلاً في هذا الإحساس ثم لا تنس يا صديقي أنك في بلاد تقود حضارة العالم ومسيرة حياته، إنها بلاد حقوق الإنسان والحرية والنظام والتقدم الحضاري الشامل.. من نحن.. وأين نحن من هذه الحضارة العظيمة؟ فعاجله الشاب ممتعضا وهو يقاطعه. -هوه هوه شوي شوي حبيبي.. أي حضارة وأي حقوق إنسان وحرية.. أي تقدم حضاري شامل تتحدث عنه.. ثم من نحن من هذا.. دعني أوضح لك يا صديقي أننا شركاء مؤثرون وأساسيون في صنع هذه الحضارة، إننا نحن الأساس لكل العلوم التي تطورت وقامت عليها تلك الحضارة.

فقاطعه الزميل ساخرًا وهو يبتسم: -يبدو أنك خطيب مفوه.. قل ما تشاء وستظل الحقيقة كما هي.. هم - أقصد الغرب - صناع الحضارة وسادة العالم، أما نحن فصناع الأوهام وسادة الكلام.

فتحدث الزميل الآخر قائلاً: -ليس لهذا الحد يا صديقي القضية ليست بهذا الشكل ولا يجب تقييمها بهذا الأسلوب.. إن هناك رؤية تقييمية أخرى شاملة لا تأخذ معطيات الواقع فقط مجردة كأسلوب وحيد وأمثل للتقييم؛ لأن النمط الغربي كأسلوب حياة مبن على فكرٍ حضاري مادي يؤدي نظريا وباستنتاج منطقي فلسفي إلى الهاوية، وتستطيع أن ترى إفرازات تلك الحضارة التي لا تحتوي على أي توازن.. إن هناك خللا خطيرًا في جوانب واتزان هذه الحضارة.

فقال الزميل متسائلاً: -ماذا تقصد بحديثك هذا.. وما هو الخلل الخطير هذا؟ فأجابه: -سأعطيك مثالاً بل أمثلة على ذلك فرغم التفوق العظيم العلمي والتقني الذي حققه الغرب، فإن النظرة التشاؤمية التي لا ترى للإنسان هدفًا ولا للحياة غاية تسيطر تمامًا على المواطن الغربي الذي ينضوي تحت مظلة هذه الحضارة، وتعال إلى العائلة الغربية كمثال حيث ظروف الحياة في أوربا تدفع بالعائلة إلى الانهيار والعائلة الأوربية المنهارة تعيش جوا روحيا تبدأ الأشياء فيه تفقد أي معنى وهدف. فمثلا زادت حالات الطلاق في السويد أربعة أضعاف منذ عام 1920 وبين كل سبع حالات زواج تنتهي إحداها بالطلاق في دول شمال أوربا الإسكندنافية وفي 50% من حالات الطلاق تكون الخيانة الزوجية سببًا مباشرًا له. وفي كاليفورنيا عام 1960 بلغت نسبة الطلاق 50% من مجموع حالات الزواج. وهناك عالم نفسي شهير، وهو إيرين دوسلين يؤكد أن انهيار الرجل الأمريكي نتيجة مباشرة لانشغال وعمل المرأة. ثم يقول: إننا نسير نحو مجتمع ستكون تركيبته من نساء مسترجلات ورجال متأنثين.. ثم استطرد قائلاً والشاب وصديقه يستمعان بجدية خلال سيرهما:

- أكثر العلماء الثقات في العالم أجمعوا على أن المجتمع الغربي المعاصر يمر بمرحلة التقارب وذوبان الفوارق بين الجنسين ليمنى كلا الجنسين بخسائر فادحة فى نهاية المطاف، وحيث يعنى ذلك توفر عوامل التخلف المطلق، وهناك علماء نفسيون أجروا أبحاثًا مستقلة أكدت هذا الأمر مثل العالمين

النفسيين الأمريكيين أبرام كاردينيار وكارمت مانلينغر... إن الضياع الأخلاقي والروحي هو المعول الذى يهدم أسس الحضارة الغربية أحادية الوجه والاتجاه، وهناك أدباء مثل صامويل بيكيت ويونسكو وادامـوف وألبيركامو يصورون هذا الضياع الأخلاقي والروحي لدى الإنسان المعاصر، ويا أخي تجسد هذه الفكرة مسرحية «من يخاف فيرجينا وولف». فتطوع الشاب مقاطعًا زميله الأكثر ثقافة قائلاً: اسمح لي أن أزيد على كلامك شيئًا، وهو قول معبر وجملة مؤثرة تمامًا لأحد مفكريهم واسمه على ما أظن هنري ماركوس الذي يعبر عن الحالة الروحية للعالم الغربي حيث يقول: «إنها انتصاف ليل العالم»، وأظن أن هذا دليل قاطع على تخبط هذه الحضارة.

فقال الزميل المعترض والأقل ثقافة: - فكونا من هذا الحديث الآن لقد وصلنا إلى المتحف. وكان الجميع قد وصلوا إلى المتحف حيث كان العشرات يحصلون على تذاكر الدخول، وغابت مجموعة الأصدقاء داخل المتحف الضخم ذي القبة، الذي لا يكفي لزيارته أقل من أربعة أيام. وفي المساء كان الثلاثة معًا في سينما الإمباير بالبيكاديللي يشاهدون الفيلم الأمريكي ترولايز والذي قام ببطولته الممثل الأمريكي الشهير آرنولد شوارزنجر، وقبل أن ينتصف وقت عرض الفيلم كان القبح الغربي قد بدا مجسدًا من خلال أحداث ذلك الفيلم السينمائي الذي يفيض بالحقد ويطفح بالأكاذيب. فما كان من الشبان الثلاثة إلا أن غادروا قاعة السينما. غادر الزميلان لندن صبيحة الأحد متوجهين إلى مقر دراستهما بالولايات المتحدة تاركين الشاب الخليجي وحده في الفندق بعد أن ودعهما حتى استقلا السيارة التي أقلتهما إلى مطار «هيثرو» في التاسعة والنصف من صباح الأحد وهو يشعر بغصة حزن لفراقهما بعد أن قضوا يومين في صحبة طيبة، وعاد إلى قاعة الإفطار حيث شعر برغبة في احتساء قدح من القهوة السوداء ولم يكن موعد الإفطار قد انتهى بعد، وجاءته نفس الفتاة العابسة الوجه دائما حين يتعلق الأمر بالتعامل معه ورفاقه من قبل، وقد لاحظ هذا الأمر بقوة خلال المرتين التي تناولوا فيها الإفطار معًا والذي كان يبدو عليها أنها ليست إنجليزية، وبالفعل كان جميع أفراد طاقم الضيافة داخل الفندق من أصول مختلفة، ويبدو أنه أصر في نفسه على معرفة السبب الذي يجعلها هكذا عابسة وعدائية المشاعر. سألته في نبرة جادة تحمل رائحة الحدة: - تريد شيئًا؟ فقال لها وهو يبتسم: قهوة من فضلك. فتحركت بصورة آلية حيث أحضرت له القهوة وكانت القاعة قد بدأت تخلو من الرواد، وبدأت بعض الفتيات بجمع أدوات الطعام من فوق الموائد إضافة إلى المفارش التي تغطي الطاولات وكانت الفتاة تحادث أخرى بلغة لم يفهمها وهي تقوم بعملها، وما أن اقتربت من طاولته التي يجلس عليها حتى بادرها بأدب قائلاً:

- من فضلك معذرة هل لي أن أتحدث معك قليلاً؟ فنظرت إليه في حدة ونظرت خلفها وقالت: - أتحدثني؟ فقال لها:

- نعم أنت.

- ماذا تريد؟

- هل تسمحين أن أتحدث معك قليلاً؟

- حول ماذا؟ ثم اقتربت من طاولته فقال لها:

- هل أستطيع أن أسألك عن اسمك؟ فقالت له: -اسمي إيفانا... لماذا؟ فقال لها وهو يبتسم ليلطف من حدة الموقف: -أظنك لست إنجليزية؟ فقالت له: -نعم، أنا لست إنجليزية. فسألها: -من أي بلد أنت إذن؟ فقالت له: -إنني بولندية. فقال لها والابتسامة ما زالت على وجهه: -وأنا عربي. فقالت: أعرف ذلك. فقال لها: -إذا لم أزعجك هل تسمحين لي بملاحظة بريئة؟ فهزت رأسها من دون كلام، فاستطرد قائلاً: -لقد لاحظت وزملائي أنك تحملين ربما حالة من الجفاء تجاهنا أو هكذا خُيِّل إلينا وأنا بالذات لاحظت ذلك، رغم أننا نراك فتاة لطيفة ومهذبة. هل أستطيع أن أعرف السبب في ذلك؟ فحاولت التهرب من الإجابة بقولها: -اسمح لي لأني مشغولة كما ترى وليس لدي وقت للحديث. فقال لها مبتسمًا: -على كل حال لقد كان في خاطري أن أسألك وها أنذا فعلت فربما كان هناك خطأ ما أردت أن أصححه. وكانت زميلتها تستمع للحوار فتدخلت قائلة وهي ترسم شبه ابتسامة مجاملة على وجهها: -أنت عربي وهذا يكفي. ثم نظرت إليها وضحكت. فقال لها: -هل لذلك السبب تحملين العداء للعرب لأنهم عرب؟ قالت إيفانا: -أنا لا أحب العرب لأني أعرفهم جيدًا. فرد عليها قائلاً: - ما هي مصادر معرفتك؟ فأجابته قائلة: -قراءاتي ومعلوماتي العامة وكتب التاريخ.

فقال لها بنبرة تملؤها الثقة: - لقد قرأت واطلعت من جانب واحد... ألم تحاولي أن تكتشفي الجانب الأخر الخفي من القمر؟ فصمتت قليلاً ثم قالت: -لا أعتقد أن الجانب الآخر من القمر يختلف عن الجانب الذي نراه بوضوح. فقال لها: - معذرة إن قلت لك إن الجانب الآخر من الرؤية يختلف تمامًا، وعلى كل حال اغفري لي فضولي، لقد حاولت أن أستوضح وأوضح لك ما هو خاف على تفكيرك ومعلوماتك. فأنا سوف أغادر هذا الفندق عما قريب وربما لن تحين لك فرصة أخرى للمعرفة.

فقالت وقد انفرجت أساريرها: -أستطيع أن أقتنص بعض الوقت بعد الثانية ظهرًا حيث ينتهي دوامي. فقال لها: - إذن هل تقبلين دعوتي على الغداء؟ ثم استدرك الأمر قائلاً ومعك زميلتك... عفوا ما اسمها؟ فقالت: - تانيا... اسمها تانيا... ثم نظرت إلى زميلتها حيث كلمتها بلغتهم ثم نظرت إليه وهي تهز رأسها موافقة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف حين غادر الشاب الفندق بصحبة الفتاتين البولنديتين إلى مطعم قريب اختارته الفتاة «إيفانا» لتناول الغداء بدعوة من الشاب الذي قد قرر في دواخل نفسه أن يقترب بشكل مباشر من المشاعر التي تسيطر على العقل الغربي تجاه العرب والمسلمين بصفة

خاصة.. لقد مثل له ذلك نوعًا من الاستطلاع الفكري والنفسي، حيث سيعيش هنا فترة طويلة وبالطبع سوف يكون هناك نوع من الاحتكاك المباشر بالعديد من الشباب الغربي، وربما كان أيضًا نوعًا من التدريب النفسي على طرح الفكر الإسلامي بشكل يعد مقبولاً لدى العقول الغربية التي تحمل مشاعر مشوهة تجاه هذا الشرق الذي يكتنز فيضا من الخير للبشرية كلها ممثلاً في مشروع ونهج حضاري وإنساني عظيم هو عقيدة الإسلام. لقد كان يدرك أن هناك موجات جارفة من محاولات الغزو المتعدد الألوان والأشكال للتراث والثقافة والنسيج الإنساني الحضاري للإنسان العربي الذي شاء القدر الإلهي أن يمتلك جغرافية متميزة الموقع والموارد وفي غاية الأهمية، ثم يرفد هذا الإنسان الذي يمتلك ميزة الموقع بعقيدة إلهية عظيمة جاءت كرسالة حضارية ومنهج للبشر كافة في أرجاء المعمورة لتصحح لهم حياتهم بتحريرهم من العبودية في جميع أشكالها ونقلهم إلى أسمى مراتب الإنسان.. إلى التوحيد ومن ثم الانطلاق إلى الآفاق الرحبة من السعادة الدنيوية. جلست «إيفانا» في مواجهة الشاب العربي وبجوارها زميلتها «تانيا» ورحب بهما الشاب وجاء الجرسون فاختاروا طعامهم من القائمة.. ثم توجه الشاب بحديثه بشكل عام إلى الفتاتين حول قدومه للدراسة الذي سوف يستغرق إقامة طويلة في بريطانيا. ثم وجه سؤالاً إلى «إيفانا»: -هل جئت إلى لندن للعمل يا إيفانا؟ فأجابته قائلة: لا، إنني أعمل وأدرس في نفس الوقت وزميلتي كذلك. فابتسم وقال لها: أود أن أسألك سؤالاً خاصا يا إيفانا وبصراحة.. هل تسمحين؟

فأجابته مندهشة: - نعم بكل سرور. فسألها قائلاً: -هل تكرهين العرب؟ فأجابته قائلة: دعني أصحح لك صيغة السؤال لأن الكراهية شيء بغيض وتستطيع أن تقول مثلاً: - ما هي مشاعرك تجاه العرب؟ وهنا أستطيع أن أجيب عن سؤالك. فقال لها: - وأنا أقبل هذه الصيغة الذكية للسؤال. فقالت إيفانا: -أولاً أنا لم أحتك بالعرب احتكاكًا مباشرًا اللهم إلا من خلال بعض النزلاء العرب في الفندق الذي أعمل به لكن ما درسناه وما عرفناه من معلومات وقراءات أنكم أنتم تكرهون الغرب وحضارته وتحاولون تحطيمها وإعادة الحضارة الإنسانية إلى الوراء من خلال محاولاتكم أسلمة العالم ورفضكم لحضارتنا التي صنعناها وقيمها وميلكم للعنف والإرهاب.. إنكم بكل معطيات الواقع تمثلون الأعداء الجدد لتلك الحضارة ولحرية الإنسان.. إنكم أنتم الذين تكرهوننا.

كان الشاب العربي يبتسم طيلة حديثها وبعد أن انتهت من الحديث قال الشاب: -أود أولاً أن تفهمي أننا نحن المسلمين الذين تتهمينهم بمحاولة تحطيم الحضارة الغربية شركاء مؤسسون لهذه الحضارة... وللحقيقة فأنا أعذرك تمامًا لأنك تمثلين الحضارة الغربية الحديثة.. فمثلاً في علم الرياضيات لا يذكر علماؤك دور المسلمين في بناء هذه الحضارة، وسوف تذهلين إذ عرفت مثلاً وهذا للأسف أن إعلامكم وكتابكم ومؤرخيكم الغربيين يتجاهلون تمامًا دور المسلمين في تأسيس الحضارة الغربية الحديثة... فمثلاً في علم الرياضيات يذكر علماؤكم إقليدس الذي توفي عام 572 قبل الميلاد ثم يذكرون بعده

بدايات علم الرياضيات في أوربا، يعني يقفزون مدة ألف عام منذ إقليدس وحتى بداية علم الرياضيات في أوربا حيث كان العرب خلال تلك الحقبة قد أسسوا بدايات العلوم ومنها الرياضيات. ولعلك لا تنسين الفراغ التاريخي لعصور الظلام في القرون الوسطى في الوقت الذي كان يعيش فيه العالم الإسلامي الممتد من الأندلس غربًا وحتى الهند شرقًا أزهى عصوره الحضارية التي وضعت بها أسس العلوم اليوم ومنها الرياضيات. وبالطبع أنت لا تعرفين العالم المسلم «ابن أحمد» الذي اخترع رقم الصفر في الرياضيات والذي يعد ثورة حقيقية في هذا العلم ثم «محمد بن موسى بن شاكر» الذي ألف كتاب «حساب الدوائر والمعادلات»، وعمر الخيام الذي انتقد إقليدس ثم وضع نظرية المعادلة التكعيبية والتي تعتبر الذروة في علم الرياضيات خلال العصور الوسطى.

فقاطعته قائلة: -اسمح لي أنا لم أقرأ عن هؤلاء ولا أصدق ذلك.. أتريدني أن أصدق أنَّ منكم علماء ومخترعين شاركوا في صنع الحضارة التي نعيشها.. هذا مستحيل. فقال لها: أنا فقط أردت أن أوضح لك أننا المسلمين نحمل قيمًا إنسانية رفيعة أمدنا بها دين الإسلام الذي هو دين الحضارة والسعادة. فقالت له باندهاش وهي تتساءل: -إذا كنتم كذلك فأين أنتم الآن؟! إنكم أشد شعوب الأرض تخلفًا. وكانت أطباق الطعام قد وضعت أمامه فقال لها: -لنؤجل الحديث لما بعد تناول الطعام. فقالت له: -نستطيع الحديث أيضًا أثناء تناول الطعام.. لا بأس، ثم أردفت: إننا وباعتبارنا أصحاب الحضارة وروادها نحاول أن ننقلها لكم بشتى السبل الإعلامية وغير الإعلامية حتى تقتنعوا بها وتتركوا هذه الغيبيات التي تسبب لكم التخلف والتأخر عن ركب الحضارة.

لم يجد الشاب فائدة من الحوار مع إيفانا حيث وصلت درجة التوتر أقصاها في أعصاب الفتاة، وما أن انتهوا من الطعام حتى انصرفوا جميعًا وتفرقوا قرب الفندق حيث توقفت الفتاتان قرب محطة الباصات، بينما دلف الشاب إلى غرفته لينال قسطًا من الراحة والاسترخاء والاستعداد لقضاء السهرة في ذلك المقهى العربي. لم يكد يمضي على وجود الشاب بالمقهى ساعة واحدة حتى كان التعارف والود قد تم بينه وبين بعض الرواد العرب المقيمين في إنجلترا، ودارت أحاديث متنوعة تخللتها بعض نصائحهم حول أسلوب الحياة هناك وعرض بعض الخدمات إذا احتاجها منهم، وبعد سهرة شبه عائلية أصر أحد المعارف الجدد على توصيله إلى فندقه بسيارته الخاصة على وعد بأن يأتي دائمًا إلى المقهى حيث التجمع الاعتيادي لهم هناك حين يسمح الوقت. ولم ينس الشاب أن يشدد على موظف الاستقبال بإيقاظه قبل التاسعة صباحًا، حيث الغد الاثنين أول أيام الأسبوع، وحيث موعده مع موظف الملحقية الثقافية لمرافقته إلى جامعته وترتيب أمور إقامته.

ــ كانت نانسي الفتاة المتفجرة الأنوثة والشباب والتي لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها ذات الجمال العربي الأصيل والشعر الأسود الفاحم تثير حيرة الشباب الخليجي الذي التحق بالجامعة لدراسة

آداب اللغة الإنجليزية والذي انتقل أيضًا إلى سكن خاص بالطلاب عبارة عن فندق ليس كالفنادق التقليدية بل يتراوح في خصائصه بين الفنادق من حيث الأجر، لكنه بالطبع مخفض جدا، وأيضًا نظام العمل والإقامة به، وبين المسكن الخاص من حيث الطعام والبرامج الترفيهية الخاصة وإمكانية الحياة الدراسية للطلاب، وقد نصحه موظف الملحقية الثقافية بالإقامة المبدئية فيه من حيث إمكانياته لخدمة الطلاب وتوفير أقصى درجات الراحة لهم كما أفهمه الموظف المختص فيما يشبه إبداء الملاحظة وإسداء النصيحة التي يفرضها موقعه أن يهتم بدراسته وأن يتجنب أي مشاكل تسيء إليه، وكان يقع في شارع ليكسهام جاردن أيضًا وهذه ميزة أخرى من حيث قربه من الجامعة ومن وسط المدينة. وما أن انتقل إليه الشاب حتى شعر بأنه مكان مناسب بالفعل، كما لاحظ أن شبابًا من مختلف أنحاء أوربا يقيمون فيه ولم تنقض عدة أيام حتى كان التعارف قد تم بينه وبين العديد من شباب وفتيات من مختلف أنحاء أوربا جاءوا للدراسة والعمل أيضًا وهم يدرسون. كانت هناك الفتاة صوفي ديلاني الفرنسية وماريا أوليفيرا الأرجنتينية والشاب فيليب جاكوب من جنوب إفريقيا وألفونسو جالينياس من إسبانيا والإسرائيلية جيسيكا أرون والفتاة نانسي، تلك الفتاة التي أثارت حيرته فهي عربية الأصل كما تقول من إحدى البلدان العربية الإفريقية وتعود بجذورها إلى إحدى البلاد العربية بالشام... لقد ذكرت ذلك حين حاورها الشاب وهو يسألها عن أصولها، وحين ذكرت اسم البلد الذي كانت تنتمي إليه أبدى لها ملاحظة أن أهل هذا البلد من العرب يتميزون في بشرتهم باللون الأسمر فذكرت أنها من جذور فينيقية.

لقد لاحظ الشاب أنها تتجنبه تمامًا كما تتجنب التحدث إليه أو تعميق التعارف بينهما... لقد لاحظ ذلك الأمر بقوة أثارت حيرته، أرجعها مرة إلى كونها عربية الأصل، إلا أنه لاحظ ميلها القوي إلى التجمعات التي تضم شبابًا أوربيين أو غربيين بشكل عام.... ولم يحاول إجهاد ذهنه بالتفكير في أمر ليس هناك فائدة ترجى من ورائه، ربما كان الشاب ومن خلال الشيم العربية الأصيلة قد أراد أن يكون عونًا لها إذا اقتضى الأمر، فهي في نظره على كل حال فتاة تعيش هنا وحيدة، وربما أيضًا كان الإحساس القوي بالحاجة إلى أصدقاء عرب على الأقل وسط هذا الطوفان من الشباب والفتيات الأوربيات.. إنه إحساس الوحشة الثقافية هنا... لا بأس ليدع الأيام تعالج الأمر.

كان الشاب يلتقي بمجموعته التي تعرف عليها والتي تدرس معه في نفس التخصص عادة في أوقات تناول الطعام بالفندق أو خلال مشاهدة بعض برامج التليفزيون خاصة كرة القدم في القاعة المخصصة لذلك وبالحديقة أو في أثناء لعب بعض الرياضات الموجودة بالفندق كتنس الطاولة أوالسنوكر، إلا أن برامج الرحلات الجماعية الترفيهية كانت ربما الأمتع في ذلك الأمر، فقد حاز الشاب الإعجاب والاحترام من قبل المجموعة منذ البداية لدماثته وخلقه الرفيع وأسلوبه السلس في التعامل مع الآخرين، لكنه كان يشعر دومًا أن هناك حاجزًا وهميا ولكنه قوي ومحسوس بينه وبين المجموعة كلها من ناحية وعلى وجه الخصوص بينه وبين الشاب فيليب والفتاة جيسيكا. لم يكن ذلك الحاجز الذي يستشعره

الشاب مع فيليب وجيسيكا ناتجًا سوى عن كونهم ينتمون إلى شعب يحمل ميراثًا مخيفًا من الكراهية لكل البشر والبغض والاستعلاء على من سواهم، صحيح لم يكن ذلك الأمر يبدو بشكل ظاهر أو مادي محسوس لكنه يظل ضمن الشعور والأحاسيس الإنسانية التي تكون نسيج النفس البشرية.. لا بأس فهذا أمر طبيعي لكنه يظل في خلجات النفس كامنًا إلى أن تسنح الفرصة لتغييره على الأقل تجاه الشخص وليس تجاه هؤلاء الذين جبلوا على سفك الدماء وتشريد الناس وسرقة أوطانهم والتدمير في أجلى صوره ومعانيه بدعوى حق مكذوب ليس له من أساس.

حين تسنح الفرصة بين شخصين من خلال موقف إنساني أو لمحات طيبة وتعامل جيد واحترام متبادل... ربما يحدث ذلك بين الشاب وبين فيليب وجيسيكا... وللحقيقة لم يكن هناك ما يثير حفيظة الشاب حتى تلك اللحظة. كما كان الشاب يدرك تمامًا أنهم هنا في أوربا قد «أيقنوا الإبادة»، أي أن اليهود قد أصبحوا في أوربا محصنين ضد أي كلمة تحمل معنى يسيء إليهم أو تشتم منه رائحة العداء لهم، وكان الشاب يدرك تمامًا أيضًا معنى «أيقنة الإبادة»، وربما أيضًا لم يحدث ذلك الحوار الذي عادة ما يجلب الصدام والمقارعة بالمنطق والبرهان وهو ما جعل الشاب يحوز أسلحته تمامًا. وبخلاف ذلك كانت نانسي فقط ومنفردة تشكل علامة استفهام هائلة له ولغزًا يصعب حله. أما الحاجز الذي استشعره مع الآخرين فهو أمر عاد ومفهوم بالنظر إلى مجمل القضايا الإنسانية ثقافيا وتاريخيا وحضاريا وهو أمر طبيعي لاختلاف الثقافات والفكر الإنساني والخلفية التاريخية الإنسانية. كان يحاول بذكاء ولباقة أن يخترق هذا الحاجز وأن يذيب المسافة الثلجية التي تفصل بينه وبين أولئك الشباب، لكن شريطة ألا يكون هذا على حساب تقاليده وعاداته وعقيدته بالدرجة الأولي؛ لأن كل ذلك يتوحد في النهاية تحت مسمى الكرامة وهي أمر من الصعب بل من المستحيل التفريط فيه، ليس من أجله فقط، حيث سيحمل التفريط هنا مساسًا مباشرًا بمقدسات وقيم إنسانية رفيعة إضافة إلى ثقة هائلة وإيمان لا يتزعزع بها مهما كان الأمر أو ربما على الأرجح كان يتوق في داخله إلى مبارزة يملك هو أسلحة مهمة تمكنه من حسمها لصالحه... وربما أيضًا كان يريد اختراق مفاهيم الغرب الحضارية القائمة على أسس واهنة وأسانيد باطلة رغم القشور الخارجية الزاهية البراقة التي تغلفها.

لم يمض وقت طويل على التحاق الشاب بمقر سكنه في ذلك المنزل الذي يضم عددًا كبيرًا من الشباب الأوربي الدارس في إنجلترا حتى لاحظ أن العاملين ومعظمهم من الفتيات كن يعملن كمتطوعات نظير أجر رمزي، إضافة إلى الإقامة المجانية وخلال تعامله المباشر معهن في الاستقبال وترددهن عليه خلال عمليات النظافة اليومية وتغيير الفرش التي يقمن بها ثم التجمع خلال أوقات الوجبات الرئيسية في قاعة الطعام، حيث كان على كل النزلاء أن يتوجهوا في الأوقات المحددة للإفطار والعشاء وهما الوجبتان الرئيسيتان اللتان يقدمهما المقر السكني لنزلائه ليحمل كل منهم صينية الطعام وفوقها الأطباق الفارغة وأدوات الأكل كالقفشة والشوكة والسكين، ثم يتوجهون في صف واحد إلى المطبخ ليختار كل

واحد منهم طعامه الذي يشير إليه فيضع له أحد العاملين أو العاملات من المجموعة المكونة من ثلاثة خلف حاجز زجاجي وأمامهم كميات من الطعام المتنوع، وبينها طبعًا لحم الخنزير، وبالطبع كان الشاب يشير لهم كل مرة بأن لا يضعوا له لحم الخنزير.

وبهذا الشكل كان قد عُرِف وأيضًا من خلال اسمه ومنظر شخصيته أنه عربي مسلم لعدد كبير من النزلاء الذين لا تربطهم به صداقة. كما علم أيضًا أن أولئك الشباب المتطوعين وهيئة إدارة السكن الخاص بالطلاب والذين أتوا من العديد من بلدان أوربا وأمريكا وبعض بلدان الشرق كلهم من المسيحيين المتدينين وأن هذا السكن الخاص بالطلاب يقع تحت إشراف الكنيسة الكاثوليكية، وبذلك وضحت له الصورة حول مغزى شعار الصليب المرسوم على لافتة المبنى الموضوعة فوق مدخله الخارجي والذي لم يلفت انتباهه كشيء ذي قيمة تستحق التفكير، فهو في بلد مسيحي وهذا أمر متوقع تمامًا في مثل هذه المجتمعات. وبالفعل تكونت لديه ربما بانوراما ليست كاملة لكنه لم يكن يعرف ويعلم أن وراء الأكمة ما وراءها. وكان يعيش ويمضي وقته هناك بين دراسته ورفقه الأصدقاء الجدد دونما اهتمام بشيء آخر سوى أن يعكس صورة صالحة لشاب عربي خليجي في عيون الغرب من خلال المجتمع الجديد الذي اضطرته الظروف للعيش فيه ومن خلال المشاركة في الفعاليات الشبابية المشروعة بإيجابية وسلاسة دونما تعصب أو تشنج وبروح عالية معبقة بعطر الإيمان والتمسك بأهداب الفضائل دونما تفريط.

كان اليوم الجمعة والوقت مساءً حين عاد إلى الفندق ودلف إلى القاعة الرئيسية بجوار بهو الاستقبال فرأى مجموعة أصدقائه جالسين يتبادلون الضحكات والأحاديث. ألقى عليهم تحية المساء وكان يفكر بالصعود إلى غرفته لغرض ما فدعوه للجلوس فلبى دعوتهم بعد أن صعد إلى غرفته، حيث وضع مجموعة كتب اشتراها من إحدى المكتبات كانت تدور حول الصراع الديني والثقافي والسياسي بين الشرق والغرب. كان هناك الشاب الأسباني ألفونسو والفرنسية صوفي والشاب الجنوب إفريقي فيليب وصديقته الإسرائيلية جيسيكا والأرجنتينية ماريا أوليفيرا... ونهض الأسباني فأحضر قهوة من ماكينة القهوة الموجودة في البهو بجوار القاعة وجرى الحديث حول أحداث اليوم، كما جرت أحاديث متنوعة لكنه لاحظ أن فيليب وجيسيكا قد تهامسا وهما ينظران إليه فلم يعر الأمر اهتمامًا، بينما كانت الأرجنتينية تتحدث حول الحياة في بلادها وهو يتابع تحول الحديث إلى كرة القدم والتفوق الأرجنتيني فيها ثم عن ثقافة الشعب الأرجنتيني وعاداته. وكان ألفونسو عادة ما يتدخل ليقاطعها مستفسرًا أو مصححًا ربما لأن الثقافتين الأسبانية والأرجنتينية تتشابهان. وشيئًا فشيئًا وجد الشاب نفسه مضطرًا للمشاركة في الحديث حول نشوء الحضارات وتطورها وثقافات الشعوب، وكانت المجموعة تنصت باهتمام حين بدأ الحديث حول الحضارات التي نشأت في الشرق العربي ثم جاء الإسلام ليعيد بعظمته

تشكيل حضارة إنسانية جديدة، بمفاهيم تتجاوز الجغرافيا والتاريخ والثقافات المتنوعة لبني البشر. وتدخلت جيسيكا في الحوار لتسأله قائلة:

- إذا كنتم يا عزيزي كما تقول فلماذا ترفضون يد السلام التي نمدها لكم؟ وبماذا تفسر الإرهاب العربي الذي تصدرونه وتمولونه لقتل اليهود في بلادي؟ كان السؤال مداخلة قوية ولكنه لم يكن مفاجأة له فهو أمر متوقع من إسرائيلية.

اعتدل الشاب بعد أن أخذ نفسًا طويلاً من الهواء ثم نظر إليها قائلاً: -لا يا جيسيكا نحن لا نقتل اليهود ولا نشجع الإرهاب بل ندافع عن أنفسنا ضد الصهيونية التي استولت بالقتل والدمار على أرض عربية وشردت شعبها، ولو كنا نقتل اليهود لقتلناهم حينما كانوا يعيشون في المجتمع العربي المسلم ودعيني أذكرك بأن عشرات الآلاف مازالوا يعيشون في بلاد العرب.

فقال فيليب ذلك الشاب اليهودي القادم من جنوب إفريقيا وهو يمط شفتيه باستهزاء: - الكلام سهل يا صديقي تستطيع أن تتحدث جيدًا لكن الحقائق تقول غير ذلك. فتدخلت الفرنسية صوفي ديلاني قائلة وهي تبتسم: -لا تنسوا أنه عربي من الخليج وهو لا شأن له بذلك. فقال الشاب الخليجي على الفور: -لا يا صوفي فبرغم أنني عربي من الخليج إلا أن الأمر يَمسني بشكل مباشر؛ فأنا عربي ومسلم والفلسطيني الذي يقتل ويشرَّد نفس الشيء وفلسطين التي اغتصبت هي بلادي أيضًا ولا تنس أن فيها القدس وهي إحدى مقدساتنا. فقالت جيسيكا: -إن فلسطين التي تتحدث عنها هي أرض إسرائيل أرض الميعاد، والقدس هي عاصمتها القديمة التي بنى سليمان فيها هيكله قبل أن يبعث نبيكم محمد بدين الإسلام، والتوراة تقول ذلك. فابتسم الشاب الخليجي ابتسامة الواثق ثم رد عليها قائلاً: -دعيني إذن يا جيسيكا أتحدث بإسهاب وبالدلائل حتى أصحح لفيليب مفاهيمه أولاً يقول إن التاريخ الموثق لديكم ولدينا ولدى العالم كله يقول إن النبي موسى عليه السلام قد عاد باليهود من مصر إلى الأرض الموعودة كما تقولين سنة 1270 قبل الميلاد واستمرت مملكة العبرانيين - أي اليهود - أربعة قرون من القرن العاشر حتى القرن السابع قبل الميلاد وبلغت أوج قوتها أيام الملك داود سنة 990 قبل الميلاد والملك سليمان سنة 960 أيضًا قبل الميلاد. وفي القرن التاسع قبل الميلاد انقسمت مملكتكم إلى دولتين: مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا، واستولى السامريون على مملكة إسرائيل سنة 721 قبل الميلاد أيضًا ثم على مملكة يهوذا سنة 604 قبل الميلاد أيضًا، وفي سنة 70 بعد الميلاد أي منذ ما يزيد على 1900 سنة دمرها الإمبراطور الروماني طيطس بعد أن استولى عليها وخرب مدينة القدس.

حاولت جيسيكا أن تقاطعه مستفزة إياه وبتأييد من فيليب إلا أن صوفي وألفونسو دعواهما لعدم المقاطعة، فاستمر الشاب قائلاً: -ومن الحقائق التاريخية الثابتة لديكم بالأساس أنتم قبل العالم كله أن الملك البابلي بختنصر سيطر على دولة العبرانيين سنة 578 قبل الميلاد وسبى اليهود واصطحبهم

أسرى إلى بابل، ومن المعلوم أنه لم ينج من الأسر إلا عدد قليل من يهود الطبقات الدنيا الذين لجأوا إلى مصر، وفي سنة 540 أيضًا قبل الميلاد عاد بقية الذين أسروا في بابل وأقاموا هيكل أورشليم من جديد، وفي عام 142 قبل الميلاد عمد الإمبراطور الروماني ترتليان إلى تهجير معظم اليهود، حيث أرسل بعضهم للعمل على السفن، بينما أرسل الباقين إلى نهر الراين في ألمانيا لحماية إمبراطوريته من القبائل الهمجية القادمة من الشمال. وانتهى إلى القول بأنه لم يكن لليهود أبدًا أي دولة سوى في حقبة قبل الميلاد ومنذ بداية الميلاد وحتى اغتصابكم لأرضنا عام 1948... أي منذ ما يقارب ثمانية عشر قرنًا حكم الرومان والفرس والبيزنطيون أرض فلسطين وبيت المقدس ستة قرون حتى سنة 638 ميلادية حين فتحها المسلمون، أي على مدى ما يقارب ثلاثة عشر قرنًا من الزمن عاشت كل الأديان في فلسطين تحت مظلة التسامح والعدل والحرية في ظل الإسلام.

كانت جيسيكا تتميز من الغيظ مع فيليب بينما كان باقي المجموعة ينصتون باهتمام شديد إلى أن انتهى من حديثه حيث قال ألفونسو:

-إن ما تقوله شيء خطير وجديد على مفهومي الشخصي. بينما قالت صوفي الفرنسية وهي تنظر نحو جيسيكا متسائلة:

-هل يكذب التاريخ؟ فقالت جيسيكا وهي توجه حديثها بخبث مهددة ألفونسو: -لا تنس يا ألفونسو جرائمكم في حق اليهود وكراهيتكم المعروفة لنا، ولا تنس أيضًا أن العرب قد غزوا بلادكم. بلع ألفونسوا ريقه وهو يحول نظره صوب الفرنسية صوفي فقد تذكر في تلك اللحظة مدى ما يمكن أن يتعرض له إن اتهمته صوفي بكراهية اليهود. وكانت صوفي أسبق منه في ذلك وأوليفيرا أيضًا. وتدخل الشاب الخليجي مرة أخرى حين شعر بأنه أطبق على فيليب وجيسيكا قائلاً وهو يضحك: -لا تحاولي إرهاب الشباب يا جيسيكا وخذي الأمر ببساطة ولا تغضبي من الحقائق حيث تكون. فقالت جيسيكا بحدة: -إن إسرائيل هي أرض اليهود كما ورد في كتابنا المقدس، أتريد أن أصدق كلامك حتى لو كان صحيحًا، فإن التوراة وهي الكتاب السماوي المقدس لليهود تقول بذلك.

فابتسم الشاب ابتسامة واسعة وهو يقول متسائلاً: -أي توراة تقصدين؟ فأجابته محتدة: -إنها أسفار العهد القديم وهي الكتاب الذي بعث به النبي موسى. فقال لها: -على رسلك يا فتاة هل تريدين أن تقنعينا بكتاب جاء به موسى؟ ثم استطرد قائلاً وهو يضحك: -كيف تقولون إن التوراة الكتاب المقدس الموجود بين أيديكم الآن وهو يتحدث عن موسى في وفاته ودفنه.. كيف يتحدث موسى عن نفسه بعد وفاته ودفنه؟ ثم نظر باتجاه الآخرين قائلاً:

-إنهم يقولون بأن التوراة نزلت بالعبرية على موسى وموسى لم يعرف العبرية وأيضًا لم يعرفها الإسرائيليون طيلة حياتهم، لقد كانوا يتحدثون الهيروغليفية وهي لغة المصريين القدماء. ولم يعرف الإسرائيليون العبرية إلا بعد أن تسللوا إلى أرض كنعان، لقد ولد موسى وعاش ومات وهو لا يعرف سوى الهيروغليفية والآرامية. وحتى أدلل على صدق حديثي ارجعوا إلى الكاتب «بريستيد» الذي أثبت من خلال مقارنته بين نشيد إخناتون للإله آتون الذي ألهه المصريون القدامى وبين مزامير داود - أن تلك المزامير مقتبسة من نشيد إخناتون وكلماته للإله آتون. لقد اقتبستم يا جيسيكا - وأقصد هنا أجدادك القدامى - كثيرًا من أدبيات العبادة الفرعونية، ثم جئتم أنتم بأكبر ادعاء كاذب خدعتم به الدنيا بأسرها لتقولوا إنها التوراة، ولعلمك وعلمكم جميعًا إن القرآن وهو كتاب المسلمين قد أخبرنا بذلك ليس في التوراة فقط بل وفي الإنجيل أيضًا. كانت جيسيكا وفيليب معها قد وصلاً إلى مرحلة مؤلمة من العذاب النفسي والشاب العربي ينسف إدعاءاتهما على الأقل أمام باقي الزملاء بأسانيد وحجج ساحقة لا تقبل جدلاً أو تكذيبًا، وكعادة اليهود في المراوغة والهروب من الحقائق قالت جيسيكا ووجهها يتلون بألوان الطيف: -اسمع أيها العربي، سواء أكانت أرض إسرائيل لنا قبل الميلاد أم بعده فإننا في النهاية أنشأنا عليها دولتنا القوية القادرة على هزيمتكم وجعلكم تسلمون بالأمر الواقع وليس أمامكم سوى القبول بذلك. فقال الشاب وهو يشعر بسعادة: -أخشى أنك واهمة فلا شيء يبقى للأبد، إننا أصحاب حضارة وقوتنا تكمن في عقيدتنا أولاً ثم في تاريخنا وثقافتنا. ولم يكد ينتهي الشاب من آخر كلمة له حتى فوجئ بطوفان من الهجوم من تلك الفتاة العربية هناك والتي كانت تقف إلى الخلف تستمع (حيث استمعت إلى الفقرة الأخيرة من حديثه).

كانت تهاجم العرب وحضارتهم في شراسة بالغة لدرجة أن الشاب شعر وكأن قضيبًا من حديد هوى فوق أم رأسه، حتى الآخرين من المجموعة بُغِتُوا وبهتوا لهذا الطوفان من التهجم. قالت نانسي في معرض تهجمها غير المبرر وغير المفهوم: -أي حضارة تدعي وأي عقيدة وأي تاريخ!! إن العرب في مجموعهم ليسوا سوى مجتمعات بدائية من البرابرة لولا الحضارة الغربية لكانوا الآن يعيشون في ظلام حالك. كانت تتساءل وهي تلقي بالكلمات متسارعة من فمها. -إنكم مجتمعات تتمسكون بالفضائل شكلاً وكلامًا ثم تعيثون فسادًا من وراء ظهوركم وتقولون ما لا تفعلون، ثم إنكم في ذيل قائمة التخلف في العالم، أين ذلك الدين الذي حمل لكم وللإنسانية المشروع الحضاري العظيم كما تقولون؟ لم يتحدث الشاب ولم يرد عليها وتركها تخرج ما بجعبتها وتنهيه، وبعدما انتهت كان الشاب لا يزال مبهوتًا بفعل المفاجأة. فقال متسائلاً بهدوء وثقة بينما كان الآخرون وبعض الشباب الذين أتوا ينصتون: -ألست عربية، وإذا لم تكوني كذلك فمن أنت إذن؟ فردت عليه قائلة: -إنني لا أتشرف بانتمائي للعرب إنني أوربية الإقامة غربية الثقافة والفكر والعقيدة والحضارة. فقال لها: -أنت لست كما تقولين إنك مسخ مشوه لا شكل له. فقالت صوفي الفرنسية موجهة حديثها للشاب:

- إن نانسي عضو في لجنة المناظرات في جامعة لندن. فقال الشاب: إذن موعدنا الغد ثم حادثها بالعربية قائلاً: - لو فيك خيرًا احضري جلستنا في الغد، ثم تحول للحديث بالإنجليزية قائلاً وهو يوجه حديثه للجميع: -إنني أدعوكم جميعًا لتحددوا موعدًا لمناظرة مع نانسي أو أي ممن تختاروهم معها. وكان ذلك ما تريده نانسي تمامًا. فاتفق الجميع على مساء الأحد وفي نفس المكان والتوقيت وغادرت نانسي القاعة وهي تشعر بأحاسيس متضاربة بينما انصرف فيليب مع جيسيكا. وكانت صوفي تطالع الشاب الخليجي في إعجاب وبلباقة دعت صوفي الجميع لقضاء سهرة في منطقة البكاديللي، حيث المقاهي والوجبات السريعة كالبيتزا والهوت دوج وغيرها، فابتسم الشاب العربي ودعاهم لقضاء السهرة في ذلك المقهى العربي الكائن في شارع كوينزواي، فوافق الجميع ونهضوا متوجهين إلى هناك على أن يذهبوا للبيكاديللي بعد ذلك.

كان ذلك هو ما تريده نانسي بالفعل.. كانت تريد مناظرة علنية تستعرض فيها مهاراتها المعرفية وقدرتها البلاغية وخبرتها في المناظرات وتمكنها من اللغة الإنجليزية آملة أن تؤكد تملقها لسادتها وأن تسحق الشاب متعاونة في ذلك مع سادتها الذين أوقعوا بها لتصبح لسانًا لهم وخاصة أنها عربية الأصل وكانت إلى ما قبل سنوات قليلة مسلمة الديانة إلى أن ارتدت عن دينها وتنكرت لتاريخها وتراثها وثقافتها الأصلية بفعل انبهارها بالمظهر الحضاري الزائف للغرب وكان ذلك قصة أخرى... ولم يكن الشاب حتى اللحظة التي استدرج فيها لتلك المناظرة يعرف خلفيات نانسي ولا قصتها.. لقد كانت بالنسبة له شيئا غامضًا ولغزًا لم يستطع حتى اللحظة أيضًا أن يفك طلاسمه. لكن من الغريب أن ألفونسو وصوفي وهما الأسباني والفرنسية كانا متعاطفين ومعجبين بالشاب العربي ذي الثقافة الرفيعة والاطلاع الواسع، ناهيك عن أخلاقه الكريمة ودماثة شخصيته وقوتها، وكانت أوليفيرا تلك الفتاة الأرجنتينية محايدة في مشاعرها وكأنها لا تهتم بذلك النوع من المناقشات إلا أنها لم تكن تضمر ودا كبيرا لجيسيكا وفيليب اليهوديين فهما برغم أنهما من أعضاء مجموعة الأصدقاء إلا أنهما يظلان ببعض تصرفاتهما النفسية وتملقهما الزائد وحديثهما المتكرر حول اليهود وما تعرضوا له من محن وإبادة يجعل من باقي المجموعة مذنبين وكأنهم هم الذين تسببوا في تلك المحن وهذه الإبادة المزعومة ناهيك عن معرفتهم وعلمهم بما قد يتعرضون له من ملاحقة قانونية ومشاكل هم في غنى عنها، هم هنا في نهاية الأمر غايتهم الدراسة والاستمتاع بمباهج الحياة.. لكنهم خلاصة الأمر كانوا يشعرون في دواخلهم أن اليهود على مر التاريخ كانوا سببًا أساسيا لصراع مزمن في بلادهم خاصة وللعالم بأسره بشكل عام.

لكن في الحقيقة كانت جيسيكا وفيليب سعيدين غاية السعادة بما فعلته نانسي وأضمرا في نفسيهما نية دعمها وتشجيعها بل والمشاركة في تلك المناظرة الموعودة. وبالفعل خابرت جيسيكا نانسي هاتفيا في غرفتها مبدية كل مؤازرة وتشجيع وعرضت عليها أن تكون هي وفيليب إلى جانبها كعضوين في

فريقها فشكرتهما نانسي وطمأنتهما. انطلق الشاب العربي مع باقي المجموعة وهم ألفونسو وصوفي وأوليفيرا إلى المقهى العربي في كوينزواي حيث قضوا وقتا جيدًا هناك ثم انتقلوا إلى منطقة البيكاديللي لإكمال سهرتهم، لكن الشاب كان قلقًا بعض الشيء بسبب ما حدث وأيضًا بسبب المناظرة الموعودة بعد الغد في مساء الأحد ورغم ثقته في قدرته المعرفية والثقافية وإنجليزيته الجيدة إلا أن شعوره بأنه وحيد وسط هذا الكم الكبير من الشباب الأوربي والذي كان يعلم حق العلم أنه ومن خلال المناظرة سوف يتعرض لتاريخه وثقافته وحضارته بالنقد وإظهار السلبيات، وهو أمر من المؤكد أنهم لن يتقبلوه برحابة صدر إلا أن ما طمأنه قليلاً هو التعاطف والمشاعر الطيبة لباقي مجموعته من الأصدقاء الذين يرافقهم الآن في هذه الجولة الليلية وسط لندن.

ولحظت صوفي وألفونسو علامات القلق والتوتر بادية على الشاب فقالت له صوفي وهي تبتسم: - لماذا أنت قلق؟ فأجابها بسرعة: - لا أبدا.. ثم استطرد وهو يتصنع الابتسامة: - لا شيء يقلقني إنني فقط أشعر بالحيرة تجاه نانسي. فنظرت له بطرف عينيها ثم قالت: - وما الذي يحيرك بشأنها؟ فمط شفتيه وهز رأسه قائلاً: - منذ أن التقيت بها أول مرة بالجامعة ثم بالفندق شعرت بغموض هذه الفتاة.. إنها بالنسبة لي لغز لا أستطيع فك طلاسمه. فقالت صوفي وهي تخفي ضحكة ساخرة في نفسها: - إنها عربية مثلك. فقال لها وقد انفرجت أساريره: - هذا بالضبط ما يحيرني فهي كما قلت أنت الآن عربية لكنها تبدو كارهة لأصلها وجذورها وثقافتها وتاريخها بشكل لافت كما أنها تتعامل معي بعداء غريب.

فقالت وهي تنظر إلى ألفونسو: - سأحكي لك قصة نانسي كما عرفتها وعرفها العديد هنا من الشباب ولن أعتبر نفسي أفشي سرا؛ حيث إنه أمر معروف للجميع وإن لم أخبرك أنا الآن فسوف تعرفه من غيري وما يشجعني على ذلك هو أنك بصدد مناظرة علنية يجب أن تتوافر فيها العدالة بين المتناظرين. أولاً: دعني أبلغك أن السكن الطلابي أو الفندق الذي ننزل فيه جميعًا هو إحدى المنشآت الخدمية التي تشرف عليها الكنيسة وترعاها وتمولها، وكل العاملين فيه من المتطوعين المتدينين، ويديره السيد سايمون وهو أحد القساوسة التابعين للكنيسة الكاثوليكية.. ثانيًا: بالنسبة لنانسي فهي عربية الجذور والنشأة وأتت هنا منذ سنوات قليلة للدراسة أو للعمل إلا أنها اعتنقت المسيحية بدلاً من الإسلام وحصلت على الجنسية البريطانية برعاية رجال الكنيسة لها وألحقوها بلجنة المناظرات الثقافية في جامعة لندن. كان الشاب ينظر إلى صوفي وهي تتحدث مدهوشاً بتلك الحقائق وأدرك الآن سر ذلك الصليب المرسوم على اللوحة المدون عليها اسم الفندق، وحتى المعنى لاسم الفندق ذاته كان من خلال الترجمة يرمز إلى تبعيته الدينية.

لكنه توصل إلى ما هو أبعد من ذلك من خلال سؤال أخذ يدور في عقله. - إذن لماذا قبلوني في هذا السكن وهم يعلمون أنني عربي مسلم من خلال استمارة البيانات التي قدمتها لهم على نموذج خاص

لديهم؟ لقد بدأ يدرك أنه يقيم في أحد المراكز التبشيرية التابعة لتنظيم المجلس العالمي للكنائس الذي يعمل دون كلل بجهازه الضخم المنتشر حول العالم لحصار العقيدة الإسلامية والحيلولة دون انتشارها وتنصير المسلمين. كانت مفأجاة قوية له، لكنه بدأ يطمئن رغم عظم المسئولية وخطورتها، وأخذ القلق يتلاشى ويحل محله التوتر وطلب من أصدقائه العودة إلى الفندق فقالت له: - ليس قبل أن نراك بشوشًا ولا تنس أن غدا السبت وأمامك وقت كاف لتتدبر أمرك.

قال لها متحمسًا: لا عليك يا عزيزتي وشكرا لك على كل حال.. وانصرف الجميع متوجهين إلى الفندق حيث كانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحًا. فتح الشاب عينيه وهو يتثاءب على فراشه وصوت البلابل ينساب في لحن الطبيعة الرائعة التي خلقها الخالق الأعظم في تناسق مبدع وآية من آياته التي لا يبصرها إلا من آب وأناب. كان يشعر بأنه نام كفايته كما كان يشعر بالراحة فنهض من فراشه حيث نظر في ساعته فوجدها قاربت التاسعة صباحًا، ورغم أنه لم ينم سوى أكثر قليلاً من أربع ساعات إلا أنه كان يشعر بالراحة والنشاط، فدلف إلى الحمام حيث أنعش جسده بحمام فاتر وصلى ركعتي الصبح وهو يدعو الله أن يحفظه وينصره وبدل ملابسه.

ثم تناول أحد الكتب من المجموعة التي ابتاعها بالأمس وهبط إلى الطابق الأرضي حيث تناول إفطاره، وكان هناك العديد من الشباب والشابات يتناولون الإفطار، وما هي إلا لحظات حتى رأى نانسي بصحبة القس سايمون يتوجهان صوب مكاتب الإدارة، فشعر بشيء من الكآبة والضيق والحزن على مصير تلك الفتاة التي خاضت حتى قمة رأسها في بحيرة آسنة.. لقد كانت نموذجًا للعديد من أبناء أمته الذين بهرتهم روح الحياة الغربية وقشورها المزيفة فباعت دينها بدنياها وها هي كالمسخ المشوه لا هي أصبحت غربية أصيلة في ثقافتها وحسها ولا هي ظلت عربية مسلمة تنتمي لجذورها وتحفظ حياتها وآخرتها. ولم يمض يوم السبت حتى كان نزلاء المسكن الطلابي من الشباب والعاملين قد علموا بما حدث وبأن مساء الغد الأحد سوف تنعقد مناظرة ساخنة بين ذلك الشاب العربي الخليجي وبين نانسي تلك الفتاة العربية التي تمردت على جذورها وثقافتها ومعها الفتاة جيسيكا وصديقها فيليب، وكان الشاب يقابل بنظرات بعضها عدائي وبعضها محايد وقليل من النظرات كانت تحمل إعجابًا وإشفاقا عليه من مواجهة الغد.

ولم يضيّعْ الشاب وقته عبثا بل انكب على مجموعة من الكتب التي تعرضت في جدية وموضوعية إلى الثقافتين العربية الإسلامية من ناحية والغربية المسيحية واليهودية من ناحية أخري، وسجل جميع النقاط المهمة التي سوف يحتاج إليها خلال المناظرة، لكنه لاحظ ابتعاد ألفونسو الأسباني والفرنسية صوفيا ومعهما الأرجنتينية أوليفيرا وتجنبهم الظهور معه في أثناء وجبات الطعام. وفي صباح الأحد لم يغادر غرفته إلا بعد موعد انتهاء الإفطار بعد العاشرة صباحًا، حيث قضى بعض الوقت في التجول

الحر تناول خلاله وجبة خفيفة مع القهوة ولم يعد إلى الفندق إلا في الثانية والنصف بعد الظهر حيث استلقى على فراشه محاولاً النوم بعد أن أدى صلاة الظهر لكنه لم يتمكن ولم يكن هناك من مهرب سوى إلى كتبه وكأنه سوف يواجه امتحانًا يحدد مصيره الإنساني. وفي الخامسة راح في غفوة قصيرة استيقظ بعدها صافي الذهن مستريح الخاطر وكانت نانسي قد شرحت لسايمون القصة بالتفصيل ومعها جيسيكا، اجتمع أعضاء الإدارة في الفندق حيث ناقشوا الأمر من جميع جوانبه، وبعد نقاش طويل استقر الرأي على عدم التراجع؛ لأن هذا سوف يعني أمام الشباب ونزلاء السكن الطلابي تراجعًا وهزيمة خاصة وهم يعرفون تمامًا أن نانسي مناظرة فذة تملك ناصية اللغة الإنجليزية والمعرفة التي تؤهلها للمنازلة والتحدي، وفوق هذا وذاك فهي كانت مسلمة وارتدت وجذورها عربية وهي لذلك أقدر من تخوض المناظرة مع هذا الشاب القادم من جزيرة العرب وفيافي الصحراء، ولم يمانع سايمون ومعه إدارة الفندق الطلابي من مشاركة جيسيكا في المناظرة حسب رغبتها ولقيت نانسي كل التشجيع من الشباب والإدارة إضافة إلى التمنيات الطيبة.

وفي الثامنة مساءً تم إعداد القاعة وتزويدها بالمقاعد الكافية وتم وضع مقعد للشباب وطاولة على الجهة اليمنى في صدر القاعة وعلى الناحية اليسرى تم وضع مقعدين وطاولة واحدة أيضًا لنانسي ورفيقتها، ولم يمض خمس دقائق حتى امتلأت القاعة بالمشاهدين وهبط الشاب من غرفته متوجهًا إلى القاعة حيث قوبل بعبارات غير مريحة ولكنه كان متحسبا لكل ذلك.. كان سلاحه الأول هو الإيمان الذي لا يتزعزع بعقيدته وخالقه، وكان سلاحه الثاني هو المعرفة والاطلاع الواسع والعلم الذي حفظ له ثقته في نفسه وتوازنه والإصرار على المناظرة لاختراق هذا الفكر المعادي لثقافته وتاريخه وحضارته وعقيدته. وإن هي إلا دقائق حتى بدأت نانسي المناظرة بتقديم جيد وشرح لموضوع المناظرة مع تأكيدها على مبدأ وقيمة الحرية التي تقدسها الثقافة الغربية. كانت تحاول بخبث أن تظهر أن الثقافة الغربية تحمل الحرية كقيمة مطلقة وهي في حقيقتها كاذبة وزائفة ثم تم الاتفاق على سير المناظرة بأن توجه نانسي سؤالاً يجيب عنه الشاب ثم تعقب هي إن أرادت على إجابته ثم يتبعها الشاب بتوجيه سؤاله لتجيب عنه ثم يعقب هو إن أراد.

وهكذا بدأت المناظرة حيث وجهت نانسي سؤالها الأول قائلة: - في ظل الحضارة الغربية المعاصرة التي قدمت للعالم كله تلك الثورة التكنولوجية الهائلة والتي صاحبها الرخاء الاجتماعي وانتشار التعليم، أين هو مكان ثقافتكم القائمة على دين الإسلام من هذا التطور والحضارة التي صنعتها الثقافة الغربية وأكدتها بقيم الحرية والعدل والمساواة؟ اعتدل الشاب في جلسته ومال بجسده إلى الأمام قائلاً: - اسمحوا لي أن أوضح شيئًا مهما في البداية وهو أن دين الإسلام سيكون مرجعيتي الرئيسية في المناظرة مع الاستناد إلى الحقائق التاريخية ما أمكن. ثم استطرد... - دعونا نتساءل عن مدى معاصرة الأحكام الإسلامية وهل تتعارض صراحة مع احتياجات الإنسان وتطوره الاجتماعي، وهنا أقول حين يجعل

الإسلام العبودية لله وحده عبر جملة «لا إله إلا الله» فإن هذا يعني ثورة حقيقية لتحرير الإنسان من كل الآلهة الكاذبة التي تسلطت عليه وعلى حياته عبر حقب التاريخ، كما تعني إسقاط حق الكهنة ورجال الدين والأمراء والنبلاء وجميع أصحاب السلطة في التحكم بأرواح الناس وحياتهم ومن ثم إرجاع تلك السلطة لله وحده، وعلينا أن نتساءل الآن في هذا العالم المليء بسلطات الآلهة الكاذبة المطلقة: هل يبقى أي دور لرسالة الإسلام التي ألغت ألوهية الإنسان وجعلت الألوهية لله وحده له الحكم والملك كله؟ وأن الإنسان الذي خلق ضعيفًا يكفيه شرفًا أن يكافح من أجل أن يكون إنسانًا حقيقيًا بدلاً من سعيه ليكون إلهًا كاذبًا أو تحوله كعبد لآلهة كاذبة. ربما ترون معي أن هذا المبدأ الإسلامي الداعي لتحرير الإنسان سيظل مبدأ معاصرا لا يتغير ولا يعفو عليه الزمن، ثم تأتي القضية الثانية العصرية والتي سوف تظل عصرية ومتجددة وأساسًا للمعاصرة في كل زمن وهي قضية مساواة ومؤاخاة الناس جميعًا التي جاء بها الإسلام في النص القرآني، حيث لا يفرق فيها بين جنس ولون ومنزلة وعرق، ربما أنتم في ثقافتكم تحترمون هذا المبدأ باعتباره قانونا بفعل المآسي التي عرفتها البشرية على يد حضارتكم وفي قلب أوربا، أما في ديننا الحنيف وحضارتنا القائمة على عقيدة الإسلام فإن هذا المبدأ نشأ على صدق مطلق دون تكلف كاذب حيث هو في الإسلام قاعدة أصيلة ومبدأ وقيمة لا جدل فيها. ودعونا نترك هذا المفهوم في البلاد التي حجبت جوهر الإسلام وأيضًا البلاد المتخلفة في العالم ولنتحدث عن رائدة الحضارة الغربية والمعاصرة في الغرب وأكثرها قوة وتقدمًا، ففي الولايات المتحدة الأمريكية صدر القانون الذي يقرر الحقوق المدنية ومبدأ المساواة بين البيض والسود في الحياة العامة قبل ثلاثين سنة فقط وتحديدًا في عام 1965م وهذا القانون رغم صدوره تعارضه شريحة كبيرة من الأمريكيين... وفي جنوب إفريقيا كنا جميعا قبل شهور قليلة نرى بأعيننا عبر شاشات التلفاز ونسمع بآذاننا التمييز العنصري البغيض الذي صنعته ثقافتكم الغربية بالطبع بين البيض والسود والتي ما زالت روح هذه التفرقة قائمة حتى هذه اللحظة التي أقف بها أمامكم. إنكم تعلنون المساواة بين الناس وتطنطنون لذلك، لكن هذا الأمر في الحقيقة أمر شكلي ولا يتوقف عند حدود اللون فقط بل يظهر بشكل جلي وعميق في التفرقة القومية والطبقية والسياسية والفكرية.

إننا ونحن نتحدث عن المعاصرة والحضارة كما ادعت نانسي فإنني يجب أن أورد هنا حقائق عن ذلك في أكثر الدول الغربية تقدمًا أيضًا وهي أمريكا، وتلك الحقائق يسعدني أن تكون موثقة وليست ادعاء ليس له أساس، ففي سنة 1968 وبناءً على تقرير إدارة شئون الصحة العامة كان واحد من بين كل خمسة أمريكيين يعيش حالة الانهيار العصبي أو يشرف على الإصابة بها. ومن بين كل ألف أمريكي كان هناك أربعة منهم يعالجون في مستشفيات الأمراض العقلية والنفسية، وفي سنة 1963 سجلت في مدينة نيويورك وحدها 23000 حالة إدمان للمخدرات أي ما قبل حوالي 32 عامًا، وبالطبع لكم أن تتخيلوا الأوضاع الآن رغم الحرب الطاحنة إعلاميا ضد المخدرات، وأنا واثق من معرفتكم الأكيدة

لهذا الأمر ودلالاته، وفي كلية هانتر في نيويورك أيضًا كشفت السلطات الرسمية أن أكثر من 50 بالمائة من الطلبة يدمنون المخدرات، وفي عام 1964 كانت تحدث في أمريكا جريمة كل 12 ثانية وجريمة قتل كل ساعة وسطو مسلح كل 5 دقائق وسرقة سيارة كل دقيقة، هذه المعلومات بناء على تقرير مكتب التحقيقات الفيدرالية.

كل ذلك حدث منذ أكثر من ثلاثين عامًا ومن الخطأ الظن بأن هذه هي حالة أمريكا وحدها فالأمريكيون يقدمون معلومات ربما أكثر من غيرهم فيما يتعلق بالوجه الآخر لهذه الحضارة التي تتفاخر بها نانسي، بينما الآخرون من الدول السائرة في فلك الحضارة الغربية يخفون ذلك بكل الطرق أو يعلنونه في نطاق ضيق وعلى مضض واستحياء. والآن هل يبقى أمل في قدرة هذه الحضارة على وضع الحل النهائي لهذه المشكلات وغيرها في ظل انعدام قوانين الدين والأخلاق؟ إن المعلومات المتوفرة لي ولكم لا تفتح باب الأمل ولا تشجع كثيرًا، حيث إنه وبالتسجيل الموثق للسلطات الأمريكية أنها سجلت فيما بين عام 1951 وعام 1967 ازدياد معدل الجريمة لثلاثة أضعاف. وشكرًا لكم على حسن الاستماع.

دوى التصفيق بين الحاضرين من الشباب على هذا الرد المفحم وكان سايمون وفرقته جالسين في المؤخرة يراقبون البداية، حيث بهتوا من إجابة الشاب، فانسحب سايمون وفريقه بعد ما كلف في عجلة أحد مساعديه برفقة إحدى النساء العاملات معه حيث أوقفوا سير المناظرة بدعوى تحديد موعد آخر والاستعداد لعقدها بالجامعة. كان الشاب يشعر بالغليان محاولاً استكمال المناظرة وكانت هناك نانسي ترتجف من داخلها وقد اهتز كيانها، وكانت تشعر نحو الشاب بالكراهية والإعجاب معًا، وكان الشباب من الجنسين يحملون مشاعر الإعجاب نحو هذا الشاب الشجاع وتقدمت صوفي من الشاب فهنأته وهمست في أذنه قائلة: - لا عليك لقد نلت منها تمامًا. انسحبت نانسي تجاه مكتب الإدارة وبعد اجتماع قصير بين سايمون وفريقه، وبحضور نانسي بدأت إحدى العاملات تطبع رسالة موجهة إلى الشاب من إدارة الفندق.

وفي صباح الاثنين نادت مسئولة الاستقبال على الشاب وهو يهم بالدخول إلى قاعة الإفطار قائلة وهي تبتسم: - لك رسالة أيها الشاب تفضل خذها. تسلم الشاب الرسالة وهو مندهش حيث فتحها ليجد نصها كما يلي: السيد/..... إنك وباعتبارك تعيش هنا في مجتمعنا المسيحي وباعتباري مسيحيا أرأس هذا المجتمع فإنني أطلب إليك الرحيل فورًا بعدما بدر منك من تجريح في عقيدتنا وثقافتنا. المخلص/ سايمون ضحك الشاب طويلاً حين قرأ الرسالة ثم تناول قلمه وسجل أسفلها ما يلي: «رسالتكم دليل آخر على مبدأ الحرية التي تؤمنون بها وإنني أدعوك للإسلام». المخلص/..... لم يدلف الشاب إلى قاعة الإفطار بل غادر الفندق، وما هي إلا ساعة من الزمن حتى عاد، حيث طلب من موظفة الاستقبال استخدام الهاتف وفي الثامنة مساءً كان ينهي إجراءات عودته إلى بلاده في مطار هيثرو دونما عودة.

المراجـــع

- تحت جلد إسرائيل (الكاتب - عادل حمودة)

- عوائق النهضة الإسلامية (على عزت بيجوفيتش - مجموعة مقالات)

- الهلال الثقافية (عدد سبتمبر 1996)